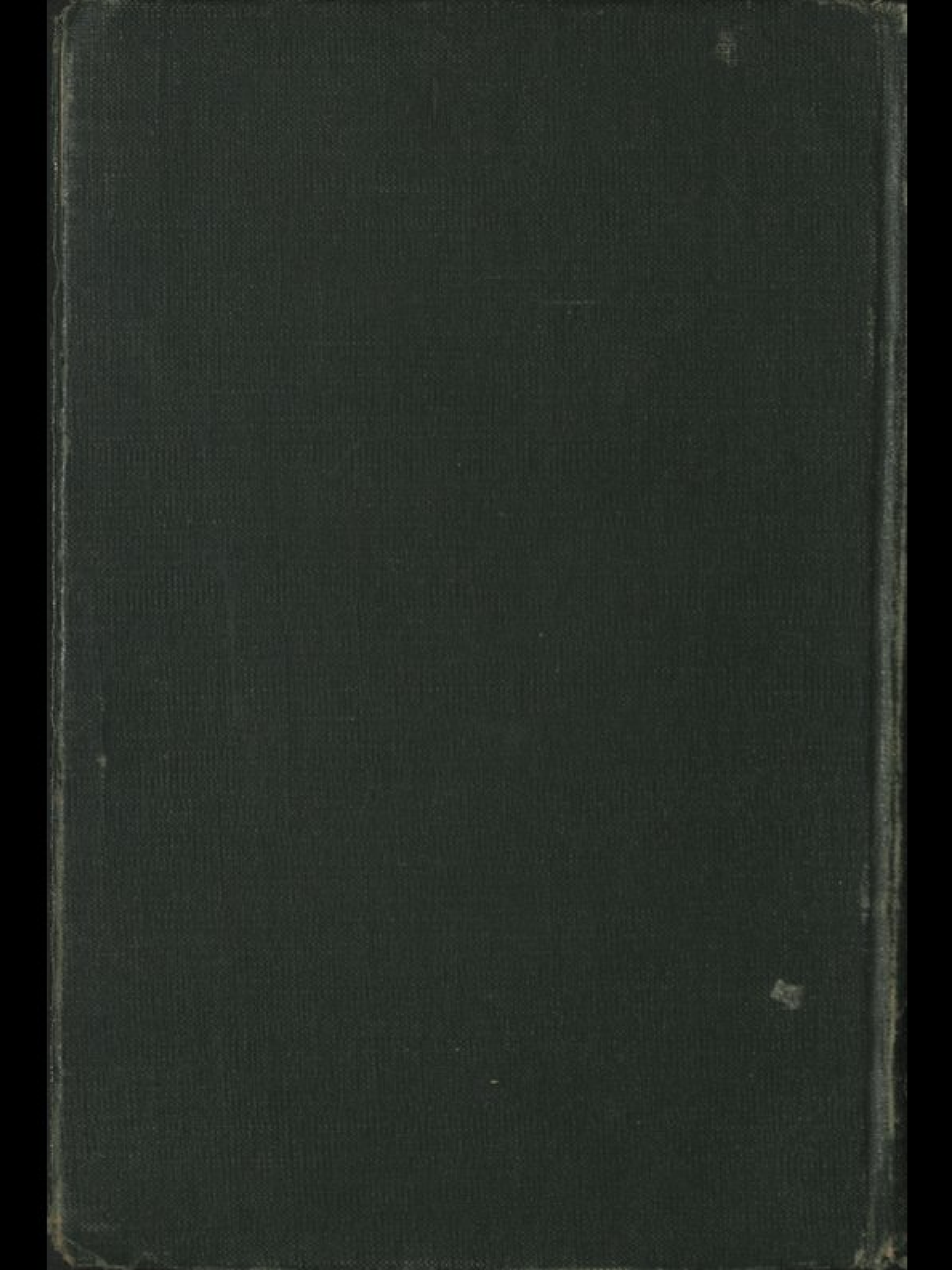
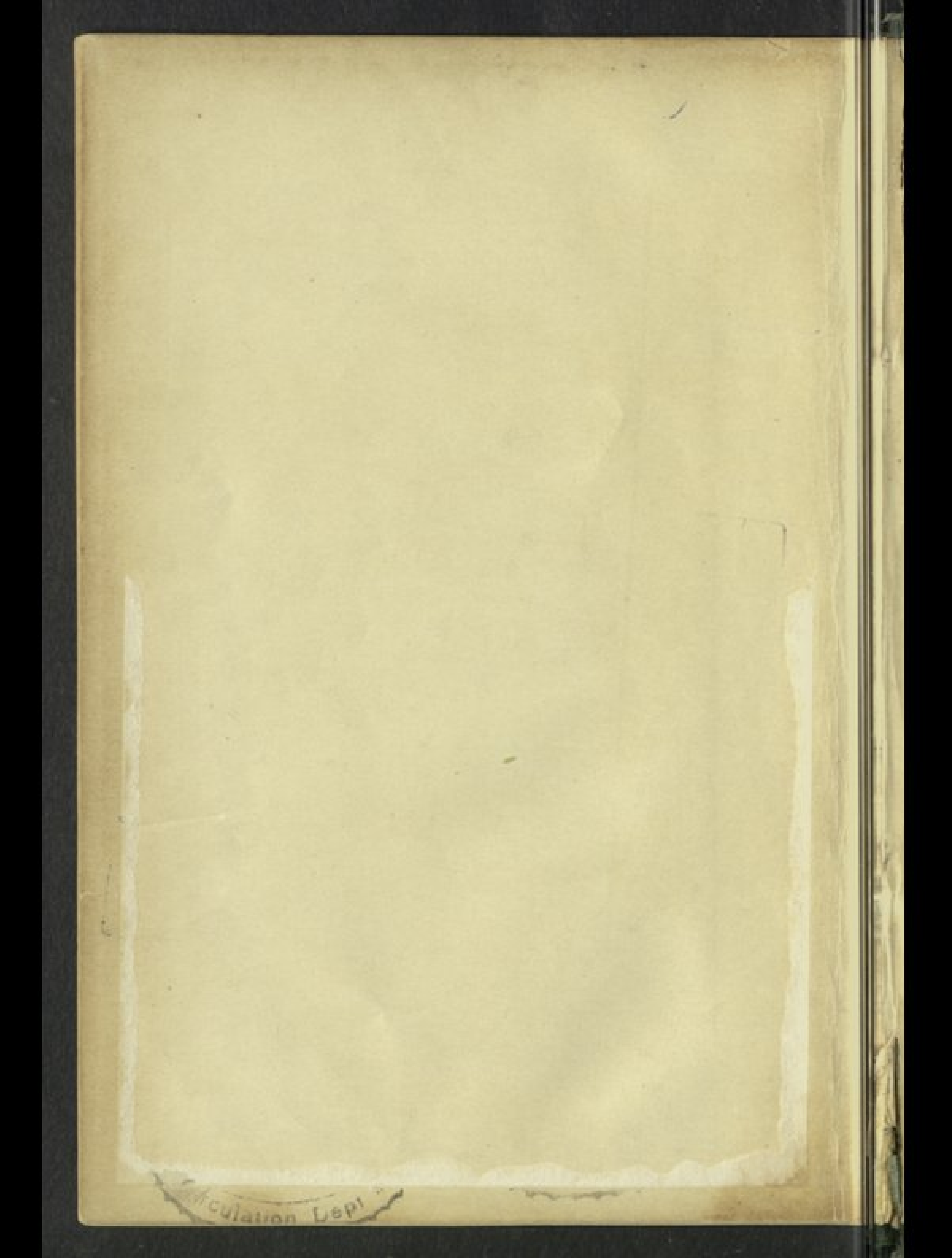
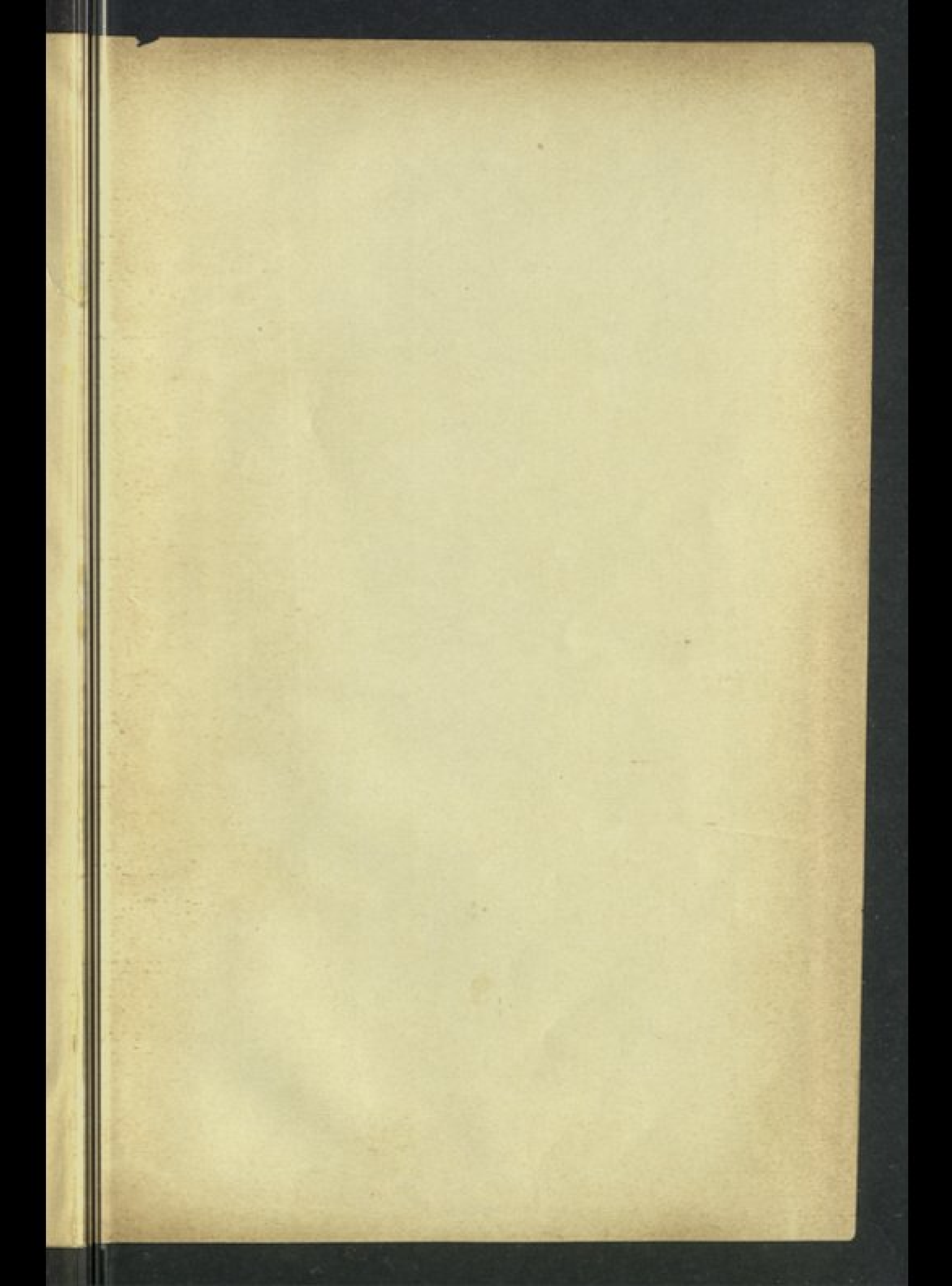
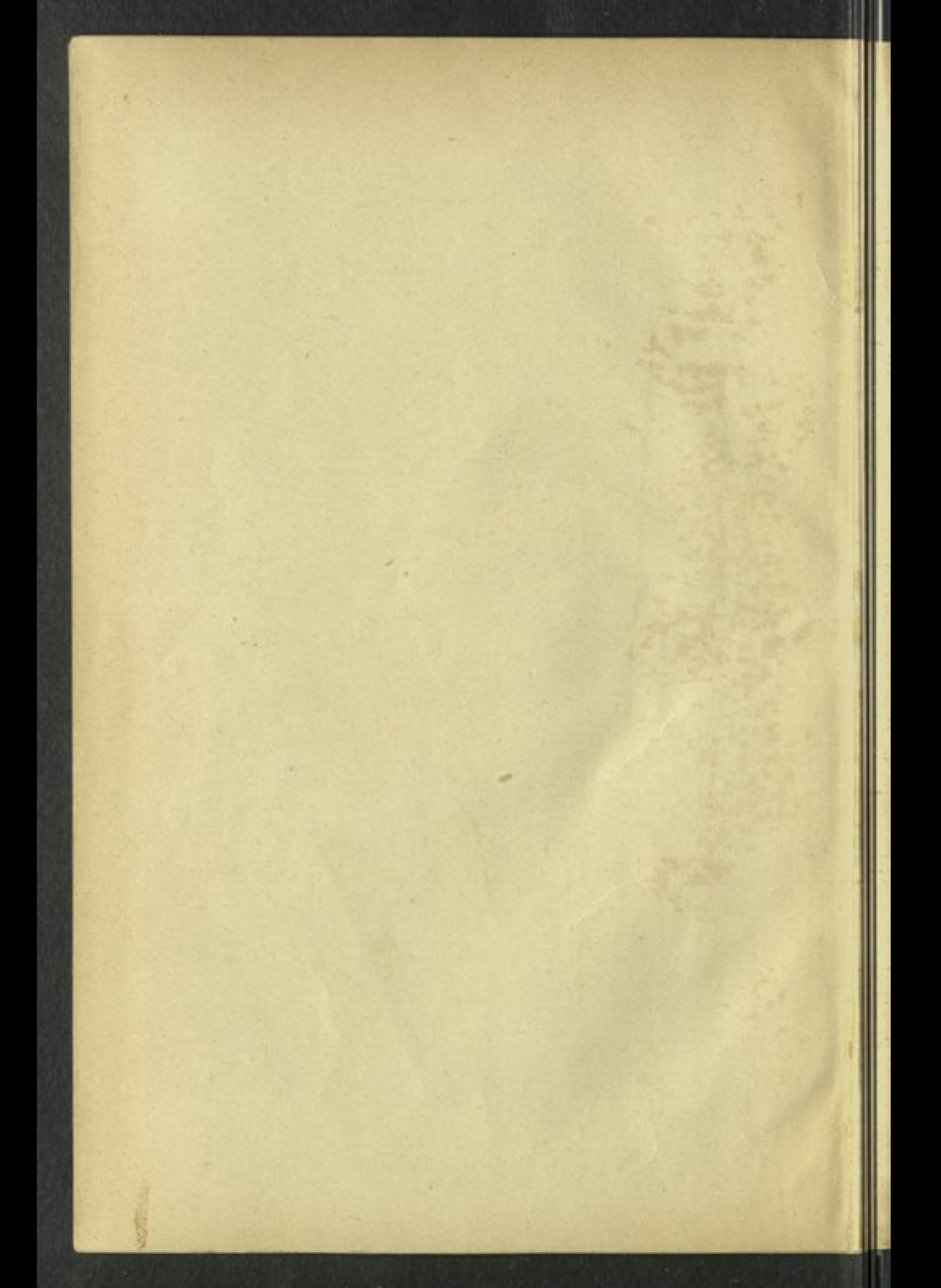
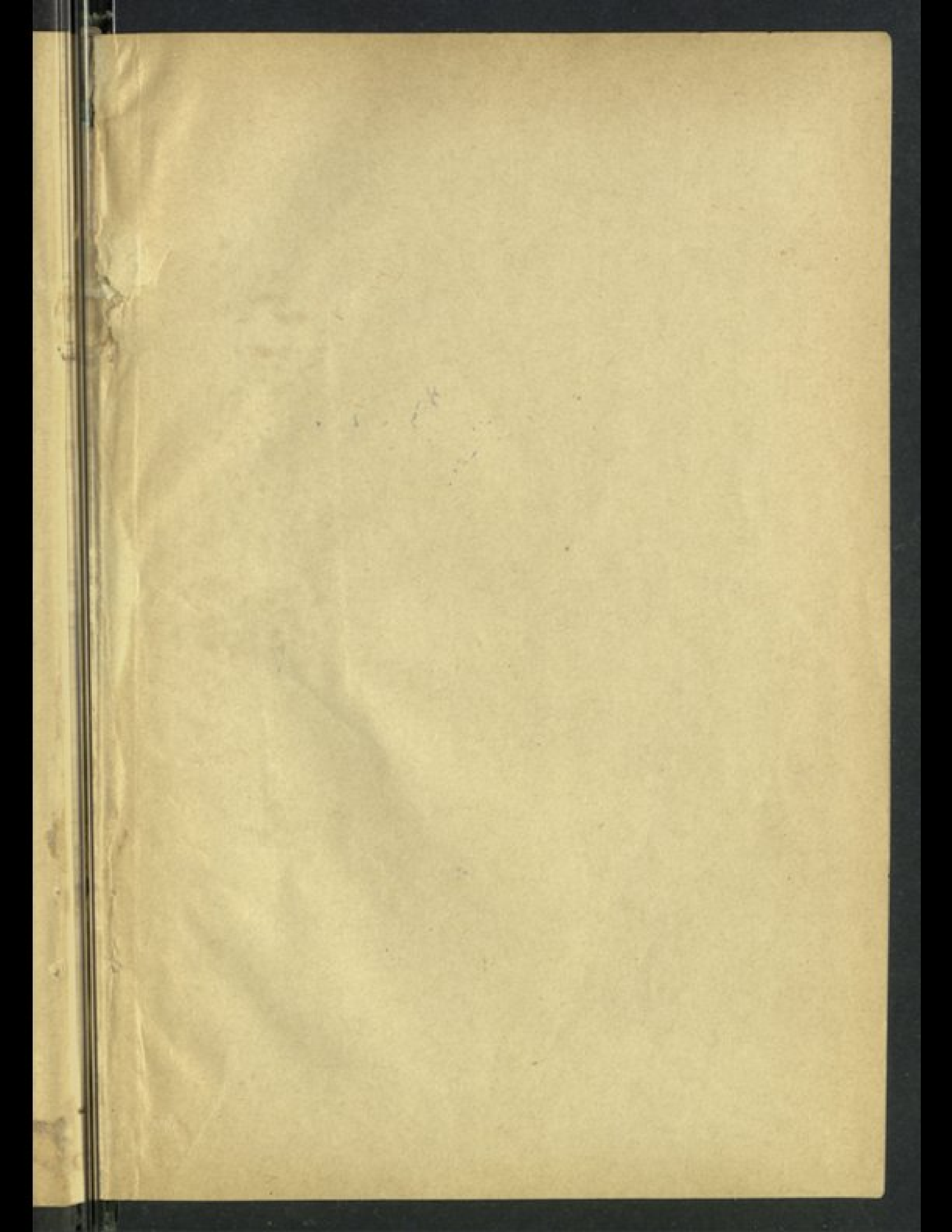










الدكتور أديب نصور

قبلَ فواتِ الأوانْ

دراساتٌ ومطالعاتٌ حولَ الأحداثِ السوريّة

١٩٤٨ — ١٩٥٥

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، شباط ١٩٥٥

« ما هي وظائف رجل الدولة ؟
ان يرى الاشياء على حقيقتها منذ البـــدء وينبه اليها الآخرين ..

وحيثما وجد تواناً او تأخراً او جهلاً او حسداً او آثاماً لا تبرأ منها المجتمعات ، فانه يضيّق افقها ويقلص ظلها ، ويبعث من جهة اخـــرى ، روح الاجمـــاع والصداقة والحمية في النهوض بالواجب . »

ديموستين

Lest we forget ... lest we forget !

Rudyard Kipling

رأيي .. بمنعرج اللوى

●

يستطيع صاحب هذا الكتاب ان يقول لقومه بدون ادعاء ما قال اخو هوازن :

أمرتـــكمُ امري بمنعرج اللـوى
فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد

و « أمرتكم امري » هنا لا تعني اكثر من « ابديت رأيي » و« بينت لكم » و« لفتّ انظاركم » و« نصحت » و « بلغت » ؛ فليس لي إمرة وليس على قومي الطاعة ، وانما انا مواطن عادي يعنى بالشئون العامة ويفكر جدياً في مشاكل بلاده ويعلن على الملأ ما ينتهي اليه التفكير ، وهو يعلم ان ليس له سلطان أدبي واسع يجعله مسموع الكلمة متبوع الرأي ، ولم تكن اقواله لتملأ

الدنيا وتشغل الناس، وانما قام بواجبه كما أعطي له ان يرى الواجب وبقدر ما اتاحت له الظروف ان ينهض بالواجبات، وكان «صوتاً صارخاً في البرية» او صوتاً هامساً في التيه السوري، على كل حال.

ولقد عشت في جو الاحداث السورية عيشاً كثيفاً، واستطعت ان اتوقع بعض الاحداث قبل وقوعها، وشعرت قبل ذلك الثلاثين من آذار (١٩٤٩) بالنظام النيابي ينهار تحت اقدامنا، ورأيت الكارثة تقترب من بعيد حتى لتأخذنا اخذاً عنيفاً، وكتبت منبهاً ومحذراً عدة مقالات قبل ان تحدث الاحداث، منها «**الحكم القوي**» نشرتها جريدة «الف باء» قبل الانقلاب الاول بأربعة اشهر و «**الجيش السوري**» قرأها الناس قبل الانقلاب بثلاثة ايام.

وحدثت الاحداث فحاولت ان افهم معناها واسبابها القريبة والبعيدة، محدداً المواقف، موضحاً المشاكل، باحثاً عن الحل السليم. وانه لمن دواعي الرضا ان يكون هذا الذي دعوت اليه صيف ١٩٥٠ في مقالات نشرتها «الفيحاء» تحت العنوان الكبير «**قبل فوات الاوان**» قد تحقق في ميثاق حمص صيف ١٩٥٣ .. بعد ثلاث سنين.

ولم اتوقف عن العمل، على صعيد الفكر، في ظل الحكم العسكري، وانما تابعت القيام بواجبي بطرق مختلفة، وربما عالجت ازمة قائمة او وضعاً شاذاً من خلال نقدي لكتاب او في ثنايا الحديث عن مذكرات. وبينما كان يوضع مشروع الدستور

الرئاسي في الخفاء ذكّرت الحاكمين والمواطنين بمبادىء الشورى والعقد الاجتماعي وحرية الاختيار في محاضرة عن « **مشكلة الحكم في صدر الاسلام** » القيت في النادي العربي في عاصمة البلاد . وربما ركبت الخطر فكتبت مقالاً صريحاً مباشراً «**قيصر واهل الرأي**» يوم كان قيصر في ذروة الحكم واوج السلطان . ولقد عرضت ذلك المقال على بضع صحف معارضة فلم تقدم على نشره وغامر به صحفي جريء اراد ان يشق لجريدته طريقاً من عددها الاول .

ويقتضيني الانصاف ان اسجل اني لم اكن لاستطيع ان اكتب ما كتبت واقول ما قلت لو كانت الدكتاتورية العسكرية مسرفة في امرها، قاسية في اخذ معارضيها . فقد روى لي الراوون ان بعض اعوان الزعيم الشيشكلي حملوا اليه مقال « قيصر واهل الرأي » وهو ينتهي بعبارة « اذن.. فليهوِ القيصر »، فلما اتم قراءة المقال سأله احدهم : « اي تدابير تأمر بان نتخذ بحق الكاتب ؟ » ، فأجاب الزعيم : « تدابير ..! اذا كنا قياصرة فلنهوِ ». وقلت للرواة حينذاك معبراً عن تقديري : « هذا كلام ملوك وكلام رؤساء . » وانه ليسرني كسوري ان الاحظ ان الحضارة بلغت في سوريا مبلغاً صقلت معه النفوس وهذبت الطباع الى حد ان الدكتاتورية نفسها كانت معتدلة بقدر ما تستطيع دكتاتورية ان تعتدل، وكان فيها مواطن للحلم والشهامة ومكارم الاخلاق .

ولقد كان لبعض الصحف وبعض المنابر فضل كبير ،واخص بالذكر منها جريدة « الفيحاء » و « الطليعة » فقد كنت اجد

دائماً في صفحاتها مكاناً كريماً ، والنادي العربي بدمشق الذي ظل طيلة فترة الانقلابات اعلى منبر في الشام يؤدي رسالته القومية بجرأة وايمان في ادق الظروف واحرج الاوقات .

ايها القاريء العزيز ، اني لا اضع بين يديك هذه الصفحات لاظهر نفسي امامك بطلاً لقصة صغيرة او لاكتب « اما قلت لكم هذا ؟ » ، وانما اعتقد ان هذه الصفحات ما تزال تحمل رسالة وتلقي درساً للحاضر والاستقبال . وان كانت هذي الدراسات والمطالعات قد كتبت او القيت في ظروف مختلفة فانها تدور كلها حول الخير العام ، وقد صيغت ضمن اطار الاحداث التي حدثت في السنوات السبع الاخيرات ، وان وراءها نظرية سياسية واحدة تحدوها روح واحدة ، وهذا ما يبرر جمعها بين دفتي كتاب .

اما من حيث العنوان بالخط الاحمر فصدقني اذا قلت لك اني ارى الاخطاء تعاد والاخطار تتجمع ، واني ما زلت اخشى ان يفوت الأوان ..

بيروت ، شباط ١٩٥٥

اديب نصور

قبل فوات الأوان

●

بعد الحدث الاخير

الاطار التاريخي للكتاب

•

And that old common arbitrator ,
Time , will one day end it . — Shakespeare

الحكم الدستوري

. . . . حتى ٣٠ آذار ١٩٤٩ (انقلاب الزعيم)

الدكتاتورية العسكرية

من ٣٠ آذار ١٩٤٩ الى ١٤ آب ١٩٤٩ (انقلاب الحناوي)

الحكم المزدوج

(السلطة الثنائية المدنية – العسكرية)

من ١٤ آب ١٩٤٩ الى ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١

١ – الثنائية الحناوية من ١٤ آب ١٩٤٩ الى ١٩ كانون اول ١٩٤٩ (حدث الشيشكلي الاول)

٢ – الثنائية الشيشكلية من ١٩ كانون اول ١٩٤٩ الى ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ (حدث الشيشكلي الثاني)

الدكتاتورية العسكرية الثانية

(حكم مباشر فنظام رئاسي)

من ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ الى ٢٥ شباط ١٩٥٤

الدستورية الثانية

(دستور ١٩٥٠ وتراث الانقلاب)

من آذار ١٩٥٤ . . . .

(١) الوزارة العسلية ١ آذار ١٩٥٤ – ١١ حزيران ١٩٥٤

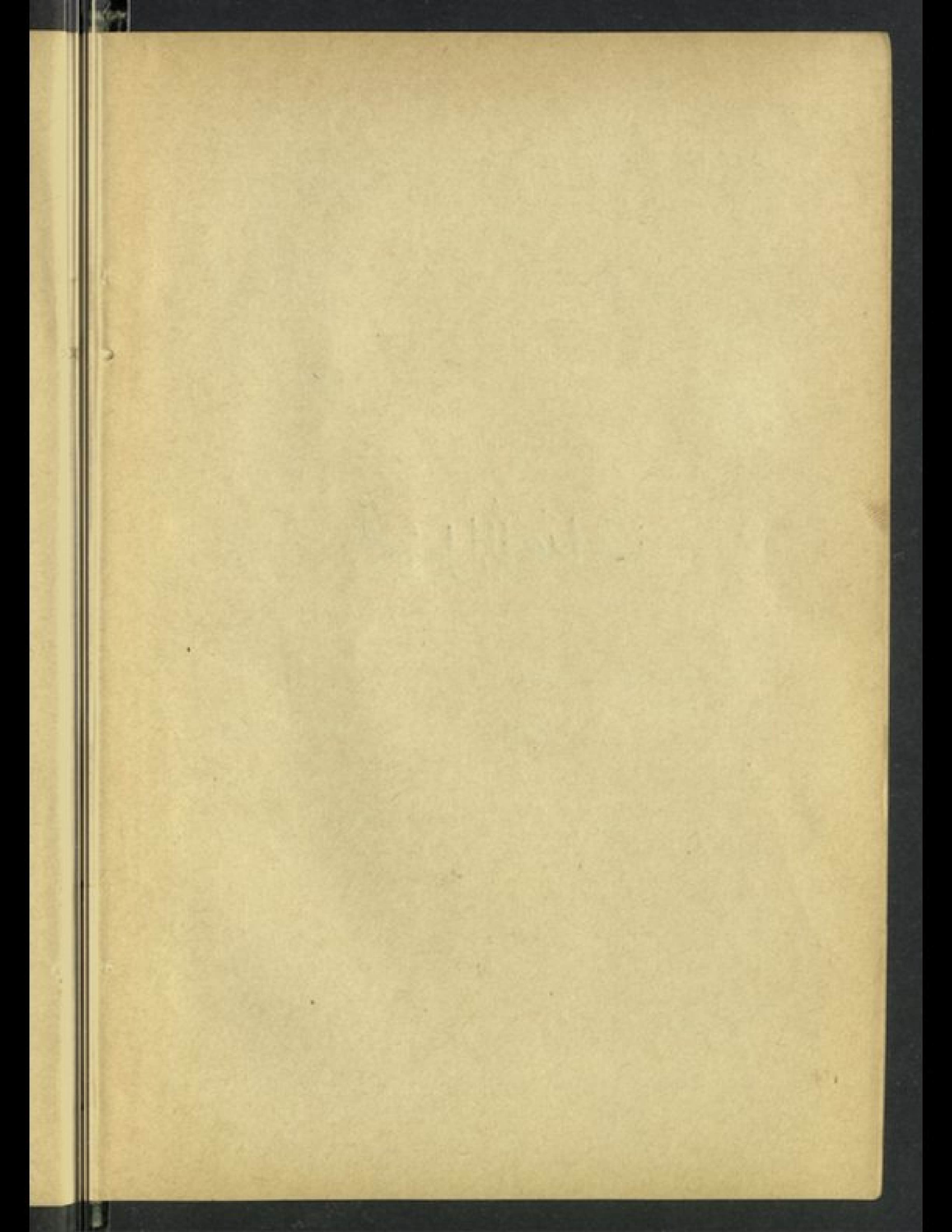
(٢) الوزارة الغزية ١٩ حزيران ١٩٥٤ – ١٤ تشرين اول ١٩٥٤

(٣) الوزارة الخورية ٢٩ تشرين اول ١٩٥٤ – ٧ شباط ١٩٥٥

قبل الأحداث

Ils veulent être libres et ne savent
pas être justes.

Sieyès



الحكم القوي

•

لا اكاد اجد في هذه الدولة مواطناً واحداً راضياً او مرضياً. كل من تلقاه يشكو . الوزير يشكو والزعيم يعتب والنائب يلوم واستاذ الجامعة ينتقد ورجل الشارع يتهم .

هذه الشكوى العامة ، هذا الحس العام يشير الى ان هنالك خطأ يجب تلافيه او مرضاً تجب معالجته .

ليس من شأني في هذا الحديث اليسير ان اقف عند اخطاء الماضي واوزع المسئوليات . المهم انقاذ الحاضر والأهم ضمانة المستقبل .

لانقاذ الحاضر وضمانة المستقبل تحتاج البلاد الى حكم قوي نزيه.

اني لا ادعو الى حكم « الملك – الفيلسوف »او «الفيلسوف – الملك» الذي ارتآه افلاطون في جمهوريته، فالملك– الفيلسوف غير متاح ، كما اني لا اذهب الان مذهب بعض الشرقيين فانتظر المستبد العادل . بما انا « ديمقراطيون » وبما ان النظام القائم هو

النظام الجمهوري النيابي، فلنحاول اولاً ان نجد الحكم القوي النزيه ضمن هذا الاطار . لنبحث في باديء الامر عن الممكن دستورياً قبل ان نفكر في اي شيء آخر .

في الاسلوب النيابي، الحزب الذي يخرج من الانتخابات العامة باكثرية مطلقة بالنسبة الى سائر الاحزاب يستطيع ان يفرض على البلاد حكماً قوياً متصلاً. والحكومة في تلك الحال تستند الى كتلة ثابتة من الاصوات في المجلس وتبقى في الحكم ما بقي المجلس في الوجود .

لكن انتخابات ١٩٤٧ لم تسفر عن نجاح بارز او اكثرية مطلقة في جانب حزب من الاحزاب. والتطور الحزبي الذي لاحظناه في المجلس النيابي خلال السنة الاولى من حياته ادى الى وجود ثلاث هيئات تجمع او تتقاسم فيما بينها نحو مئة نائب . الا ان الهيئة الواحدة من هذه الهيئات لا تملك اكثرية مجلسية تخولها الانفراد بالحكم . وموارد الكتلة الواحدة من العلم والخبرة والشخصية محدودة .

فالحزب الوطني وهو اكثر الاحزاب عدداً وأعزها نفراً لا يتجاوز اعضاؤه الاربعين وشخصياته المؤهلة للحكم قليلة جداً . وحزب الشعب دون الثلاثين لكنه يشكل في مجموعه نسبة عالية من علم المجلس ومواهبه . والحزب الجمهوري ما زال يتقلص ويمتد ويزيد قليلاً على الثلاثين او ينقص قليلاً .

واضح اذن ان حزباً من هذه الاحزاب لا يستطيع ان ينفرد بالحكم وهذا المجلس قائم. وحل المجلس لا اظنه يحل المشكلة، فاذا

كانت الانتخابات حرة فالمجلس القادم لن يختلف كثيراً في تكوينه عن المجلس الحاضر . امـا اذا فكر احد الاحزاب ان يصنع الانتخابات الآتية صنعاً ويفرض القوائم فرضاً فقد يستطيع ان يأتي الى الحكم ومعه الكثرة الكاثرة ولكنه لن يأتي الحكم قوياً نزيهاً . اقول هذا واعتقد ان الشعب السوري الابي لا ينام على ضيم ولا يقبل مطلقاً قوائم مفروضة وانتخابات مصنوعة . ان امراً عجزت عنه فرنسا لا يقدر عليه حزب مستحدث في البلاد .

بقي امامنا تشكيل حكومة قومية جـامعة من الاحزاب الثلاثة يختار لها اقوى الرجال واكثرهم كفاءة ونزاهة وتسندها اكثرية مشكلة من مئة نائب او اكثر .

ان حكومة قوية مؤلفة من خيرة رجالات البلاد يمكن ان تعيد الثقة الى نفـوس الشعب فتحكم وتجبي الضرائب وتحمي الحدود وتجابه المشاكل العظيمة وتتخذ القرارات الخطيرة التي لا تجرأ حكومة ضعيفة ان تتخذها فتؤجل وتماطل وتهمل اقـدار البلاد .

لماذا لا تقوم وزارة قومية ؟ لماذا ؟

الشعب انتخب نواباً ووضع بين ايديهم مقدرات البلاد الى اجل مسمى . والنواب نظموا انفسهم وتوزعـوا على احزاب واسلمـوا قيادهم لقبضة من الرجال . هذه القبضة من الاقطاب هي الان مسئولة امام الله وامام الناس عن قوة الحكم ونزاهة الحكم .

فيا اقطاب الاحزاب وزعمـاء النواب ! اتفقوا فيما بينكم على

نهج معلوم لانقاذ الدولة . الديمقراطية مريضة في سوريا والدولة السورية تناضل او يجب ان تناضل من اجل البقاء .

حذار حذار ايها القادة والسادة . اذا لم ينهض النظام القائم بانقاذ الدولة من نفسها اولا ومن عدوها ثانياً فسيتجه الناس الى رجل قوي داخل الحدود او وراء الحدود وينقادون اليه ويستسلمون .

وان وراء الحدود من يكيد لجمهورية سوريا ، وان داخل الحدود كثيراً من المغامرين الذين قرأوا هتلر وموسوليني ولينين ومصطفى كمال وبشروا بحكم الفرد وسلطان الحزب .

اذا زلزلت اركان الجمهورية ، لا سمح الله ، وانهار هذا البناء فلن يبقى حزب شعبي ولا حزب وطني ولا حزب جمهوري . ان البحث عندئذ في مسؤولية هذا الحزب او ذاك يصبح نظرياً لا طائل تحته . وسيطوي الزمان سير الرجال وينسى اعمال زيد وطموح عمرو وجبن الاخرين . اما التاريخ فيسجل حقيقة قاسية رهيبة : **انهارت الدولة لان رجال الجمهورية لم يحسنوا سياسة الملك وكل من لا يسوس الملك يخلعه .**

الا تخشون التاريخ ايها القادة والساسة والاقطاب ؟

الاحزاب انما وجدت لتنظم عمل الجماعة وتضاعف انتاج الفرد ، ولم توجد الاحزاب لتعطل عمل الضمير في صدر النائب والمواطن .

الاحزاب استنبطت لتقدم خدمات جدية للبلاد ، فماذا نفيد اذا انشأنا الكتل وفتحنا المكاتب ووضعنا البرامج وبحثنا عن

الشعبية وهربنا من المسؤوليات ؟ ماذا نفيد أذا ربحنا الاحزاب وخسرنا البلاد ؟

تأملوا أخيراً في هذا التفريق الدقيق بين رجل الدولة ورجل الحزب ساقه في « خطبة التاج » رجل دولة قديم :

الفرق بين رجل الدولة وبين رجل الحزب او المتشيع هو هذا : ان الاول يعطي رأيه ويقدم نصحه قبل الحادثة ويجعل نفسه مسئولاً امام الناس وامام المفاجآت والاقدار بينما يعتصم الاخر بالصمت عند اقتضاء الكلام ويبدأ باكتشاف الاخطاء بعد وقوع الكارثة *.

---

* ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٨

مبدأ الجمهورية

●

مــاذا اصابك ايهـا الوطنُ
يبكي بنوك ويضحك الزمــن

ماذا اصاب دولة الشام وماذا دها رجال الشام ؟

لقد طلعت سوريا على الدنيا قبل سنوات معدودات كأن شمساً جديدة قد خرجت من قلب الارض . وتلفت العرب الى عاصمة امية وشعروا بعزة قديمة تعود ، واقبل السوريون على حياة الحرية والكرامــة متطلعين الى يوم تصبح فيه سوريا مدرسة العرب .

ومضت ايام ، واعترضت الجمهورية الناشئة حوادث جسام مما يعترض حياة الامم ، فاذا بالدولة الحديثة تتعثر ، واذا بالمواطنين النابهــين يتنكر بعضهم لبعض وينصرفون عن جليل الامر الى السؤال والجواب والاخذ والرد والشك والاتهام .

اي صورة لسوريا ترتسم في مخيلة انسان مقيم في انقرة او لندن او تل ابيب يقرأ صحفنا يوماً بعد يوم ويتتبع اخبارنا الصحيحة والمشوهة مذاعة من مصادرها ومن غير مصادرها !

المواطنون المقدمون في السياسة والادارة والحرب يتهم بعضهم بعضاً بغير حساب .

القوم يعيشون في جو كئيب خانق مشحون بالحقد والبغضاء، مليء بالشكوك والريب والظنون .

وطموح الرجال لا يعرف حداً ، والرغبة في الانتقام تطغى على التماس الخير العام طغياناً مخيفاً .

اني لا اكتب هذه السطور لألقي مسؤولية على شخص معين او فئة بالذات فالظروف الخطيرة التي نمرّ بها اعظم بكثير من اشخاصنا العابرة وادوارنا الطارئة. المهم في الامر ان مسلكنا كجماعة ، كشعب ، كقوم لا يوحي بان المجتمع السياسي سليم، وان البنيان موطد الاركان .

خرجنا من الدولة العثمانية ولدينا بقية باقية من اخلاق ناضلنا بها ربع قرن ونلنا بها الحرية كاملة . وكأن احتياطي الاخلاق قد ذهب مع ذلك الجهد الكبير،او ان الجسم السياسي استرخى بعد انتفاضة جبارة فلم يكتسب مزايا الحياة الحرة والعيش الكريم .

ام ترانا حسبنا ان الملك يشاد والحكم الصالح يقام والحرية تصان بدون فضائل واخلاق وآداب .

لقد علمنا مونتسكيو ان الحكم المطلق يستند الى الخوف والرهبة عند الرعية بغض النظر عن اخلاق الرعية .

وان الملكية يحركها مبدأ الشرف عند الملك .

وان الارستوقراطية يضبطها مبدأ الاعتدال عند النبلاء .

اما الجمهورية فلا تقوم ولا تدوم بدون فضائل مدنية يتمتع بها جمهرة المواطنين .

الفضيلة في صدر المواطن – هذا هو مبدأ الحياة الحرة الذي به تكون الجمهورية وبدونه لا تكون ابداً * .

---

* ٢١ كانون الثاني ١٩٤٩

سقوط العظيم

•

نقرأ في مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية ما يلي في الصفحة الاخيرة من الجزء الاول :

« وهكذا .. في ليلة العاشر من ايار ١٩٤٠ ، وفي بدء المعركة الجبارة ، تسلمت السلطة الرئيسية في الدولة ومارستها خمس سنوات وثلاثة اشهر من الحرب ، استسلم في نهايتها جميع اعدائنا او كادوا يستسلمون ... عند ذاك صرفني الناخبون البريطانيون من خدمتهم . »

هذا تعليق مختصر فيه كثير من ضبط النفس لكنه ينطوي على معنى من معاني العتاب القاسي والالم العميق ، ويشير الى عادة من عادات الشعوب تكاد تكون ملازمة للحياة السياسية الحرة ، فتشرشل ليس اول رجل دولة صرفه شعبه من خدمته ، وقصة كوريولانوس مشهورة في تاريخ روما حتى ان شكسبير اخذها وخلدها في مسرحيته التي تحمل هذا الاسم .

ترتفع اسعار القمح في روما فيسخط الشعب ويخص بسخطه ابناً كبيراً من ابناء روما فيسقطه فيلتجيء كوريولانوس الى دولة معادية ويقود جيشها مظفراً الى ابواب روما منتقماً لكبريائه الجريح فيسرع الذين اسقطوه الى استرضائه ويترامون على الاقدام . غضب الشعب كرضاه ، لهب وينطفي او غيمة وتنجلي وتبقى بعدها حقائق الاشياء .

لماذا يغضب الشعب ولماذا يرضى ؟

وكيف ينقلب الناس هذا الانقلاب السريع فيحطمون اليوم صنماً رفعوه بالامس وقدسوه وقد يعودون الى عبادته غداً او بعد غد ؟

ظاهرة سياسية غريبة نقف امامها متسائلين علنا نجد بعض اسبابها العميقة في الطبيعة البشرية نفسها لا في الظروف والملابسات .

نلاحظ ، **اولاً** ، ان الرجل العادي الذي يمثل الكثرة من المواطنين في اي مجتمع كان لا يطيق حكم العبقرية الا مكرهاً . الامم تحتاج في ازماتها الى مواهب وعزمات ، فاذا قضت منها وطراً ضاقت باولي الموهبة والعزم وسعت الى التخلص من طغيان العبقرية . اما في الظروف العادية فالمواطنون يفضلون حكم اوساط الرجال . الم تر الى تمسك الاميركيين بالرئيس ترومان ؟ ان فضيلة ترومان هي انه رجل عادي ، عادي حتى المأساة . ثم ان المع رجال الجمهورية الفرنسية الثالثة امثال كليمانصو وبريان

ما استطاعوا الوصول الى الرئاسة الاولى، ذلك ان عامة الناس تستثقل الامتياز وتخشاه .

ثانياً ، الساسة والحكام بشر من البشر يخطئون ويأثمون ويكررون الاخطاء والآثام فاذا حكموا طويلاً تراكمت الاخطاء والسيئات وذاع امرها وشاع وكثر الساخطون فالتمسوا التغيير والتبديل ، وقديماً قال الشاعر العربي :

ان نصف الناس اعداء لمن
ولي الاحكام هذا ان عدل

ثالثاً ، اذا فشلت دولة في سياسة او في حرب فشلاً كبيراً فان الشعب يختار لنقمته رجلاً او بضعة رجال يحملهم مسئولية الهزيمة لان الشعب لا يقبل ان يعترف بهزيمته هو ولا يجرأ على مجابهة آثامه وقصوره وخموله . هكذا سقط تشمبرلن وهكذا انهار دلاديه في السنة الاولى من الحرب الاخيرة .

رابعاً ، الشعوب تشبه في بعض اخلاقها النساء . طبعها قلب وامرها عجب . انها تبحث ابداً عن الجديد الطريف المستحدث. ثم اليست السياسة رواية مسلية للناس فلماذا لا يتوالى على المسرح الكبير طوائف الممثلين فيستعرضهم الجمهور ويعبث ويلهو ويجدد العبث واللهو مع كل وجه جديد .

خامساً ، ان الشعوب الحرة تود ان تثبت لنفسها وللناس ايضاً أنها صاحبة الامر والنهي والسلطان فهي تتدخل بين حين وآخر لتسقط سيداً وترفع سيداً آخر .

لهذا كله اشتهرت الجمهوريات بقلة الوفاء . واني كباحث لا أستنكر من هذا شيئاً ولا احبذ شيئاً ، انما اكتفي بان اسجله كواقع ، كظاهرة سياسية عامة تلفت النظر وتستدعي التأمل والتفكير .

وما دام الامر كذلك وكان لا بد من غضب ورضا واقبال وادبار ومد وجزر وصرف من الخدمة وعودة الى الخدمة فيحسن بالشعوب الا تسرف في غضبها ورضاها ، ويجدر بالامة الكريمة الا تقسو في معاملة خدامها الكبار * .

* ٧ كانون الثاني ١٩٤٩

الصحافة والمجلس

•

بين رجال الصحافة والنواب مناظرة قاسية وعتـــاب . ولا أحسب اللوم كله يقع على طرف واحد من الطرفين المتنافرين ، وانما أعتقد ان الخير في التسامح والتعاطف والوضا .

فالصحافي رجل عام يكتب ليهدي ويرشد وينير ، والنائب رجل عام يشرع للناس ويراقب الحكام ويوجه ويشير ، ومصلحة الجمهورية تقضي ان يحترم الرجلان بعضهما بعضاً ويتعاونا في سبيل الخير العام .

ومهما ساء رأي الصحف بالمجلس النيابي فان هذا المجلس مـن هذه الامة وان فيه لقسماً كبيراً من المواطنين المقدمين في البلاد. وان الصحف لا تستطيع ان تهجو النـــواب دون ان تسيء الى الناخبين وفي الحديث الشريف: «كما تكونوا يولّ عليكم». ثم ماذا تبغي الصحف ؟ ألا ترى انها في هجومها المركز الكثيف عــلى النواب تزلزل ايمان الناس بالحكم النيابي ؟ ألا يعـلم السادة

الصحافيون ان عامة الناس لا تفرق التفريق الدقيق بين النواب المنتخبين في صيف عام ١٩٤٧ وبين هذه المؤسسة الكريمة الباقية التي تدعى « مجلس النواب » .

اذا هدمتم النواب فانما تهدمون المجلس . واذا تهدّم المجلس ، وهو قلب النظام الجمهوري النيابي في البلاد ، فماذا يبقى من ذلك النظام ؟

ثم اذا ما زال احترام الناس للنظام النيابي واتجه السوريون الى اسلوب آخر في الحكم فأين تصبح حريات الصحف وكرامة الكتاب ومكانة المفكرين ؟

واعود فأقول للسادة النواب : الا مهما ذقتم من تقريع الصحف وتجريح الاقلام ومهما كان ظنكم بالصحافيين فان هذه الصحافة هي بنت حياتنا الاجتماعية ووليدة الجو الفكري السائد في البلاد ، وانكم لا تستطيعون ان تصدروا حكماً صارماً على الصحافة باسرها دون ان تلحقوا الاذى بجمهرة الكتاب والقراء من المواطنين .

ولا يغرب أبداً عن بالكم ان الصحافة تحمل رسالة في حرية الرأي وحرية القول وحرية الكتابة ، فاذا حملتم على الصحافيين جملة فكأنكم تقولون للناس : « ان سوريا لا تستحق هذه الحريات ولا قبل لها بممارستها » . وعندها ما الذي يبرر وجود نظام جمهوري حر ومجلس نواب ؟

حالة الصحافة الحاضرة تترك مجالاً كبيراً للتمني ... وكذلك حالة المجلس .. حالتان من حالات هذا الشعب في مرحلة من

مراحل تطوره ، فرفقاً اذن بالشعب ورفقاً بمـــؤسساته الناشئة المتعثرة في بدء الطريق .

وأخيراً هل يسمح لي رجال الصحافة الكرام ان اذكرهم بكلمة قالها فيصل العظيم لا اجد خيراً منها لاختتام حـــديثي اليسير ؟ قال فيصل : « اني احب أن أضع الصحافيين في صف الزعماء واطلب اليهم ان يتقوا الله في الواجب المقدس . » *

---

* ١٣ شباط ١٩٤٩

الجيش السوري

•

اكتب هذه السطور ليعلم القادة والجنود ان كثيراً من المواطنين السوريين يتجهون بافكارهم الى الجيش السوري في هذه الايام المريرة ويشاركون افراده في بعض ما يشعرون .

فالجيش مضطر الى مهادنة عدو لم ينتصر عليه في معركة ولا تفوق في ميدان .

وبعض عناصر هذا الجيش تقف متهمة امام القضاء ويقال عنها انها تاجرت او اهملت او اغفلت او قاربت الخيانة العظمى .

هذه ايام مريرة حقاً قاسية جداً لكنها لا تنال من كرامة الجيش بمجموعه ولا من شرف السلاح .

أما الهدنة فليست شراً كلها ولا تكون شراً اذا اتخذها الجيش فرصة للتحضير والاستجمام ، فقد علم الناس جميعاً ان الجيش السوري دعي الى المعركة وهو غير معد لها الاعداد الحسن، وهل تكفي سنتان او ثلاث لتنظيم الالوية وتدريب الجنود وتسيير

آلة الحرب .

ثم ان هذا الجيش الناشيء الصغير حرمت عليه الدول الكبرى الذخيرة والعتاد فكان الجندي يتلهف على الطلقة الواحدة ويعلم انها اذ تنطلق لا تعوض .

وحين قل التدريب وعز السلاح قام البأس مقامهما الى حد بعيد، ودلت الحرب القصيرة المتقطعة ان السوري يستطيع ، اذا اتيح له التدريب الكامل والتسليح الحديث ، ان يكون محارباً فذاً فطناً بارعاً في فنون القتال .

وقد ترك الجيش السوري في سمخ وصفد ومشمار هايردن وتل العزيزيات آثاراً لا تمحى من العزم والبأس والثبات .

اما اهمال بعض عناصره غير المقاتلة،وما يقال عن تجارةوغواية وخيانة،فان صحت كلها او صح بعضها فانها لا يجوزان تنتقص من قدر هذه المؤسسة القومية التي تدعى الجيش السوري ولا تؤثر في تقدير البلاد لابنائها المقاتلين .

ان كان هناك افراد معدودون قد تصرفوا تصرفاً غير لائق بشرف الجندية وعزة من يحمي العلم فان المئات من الضباط والجنود قد أفرغوا قلوبهم على الحدود وأعطوا الوطن كل شيء ولم يأخذوا شيئاً .

هؤلاء سقطوا شهداء الواجب في الميدان وخلفوا وراءهم مثالاً حياً في التضحية يثير زملاءهم ويلهم الاجيال .

فلنضرع الى الله ألا تذهب تضحيتهم الغالية سدى .

***

والآن اليكم الحقيقة واضحة عارية :

ان سوريا الأم لم تستطع ان تنقذ سوريا الجنوب .

وان قوة الجمهورية السورية لا تليق بمكانتها بين العرب ولا تتناسب مع طموح ابنائها ووثبات مفكريها .

امام هذه الحقيقة يتضح واجب الدولة وتتحدد مهمة الجيش .

واجب الدولة بعد اليوم ان تعتبر الجيش السوري المؤسسة القومية الاولى بين المؤسسات ، فتقدم حاجاتها على سائر الحاجات وتوضع فضائل الجندي في طليعة الفضائل المدنية .

ومهمة الجيش ان ينمو نمواً سريعاً مطرداً في القوة والخبرة والنظام والانضباط ويصبح آلة حربية ممتازة تدفعها الدولة في اللحظة المناسبة نحو قدرها العظيم * .

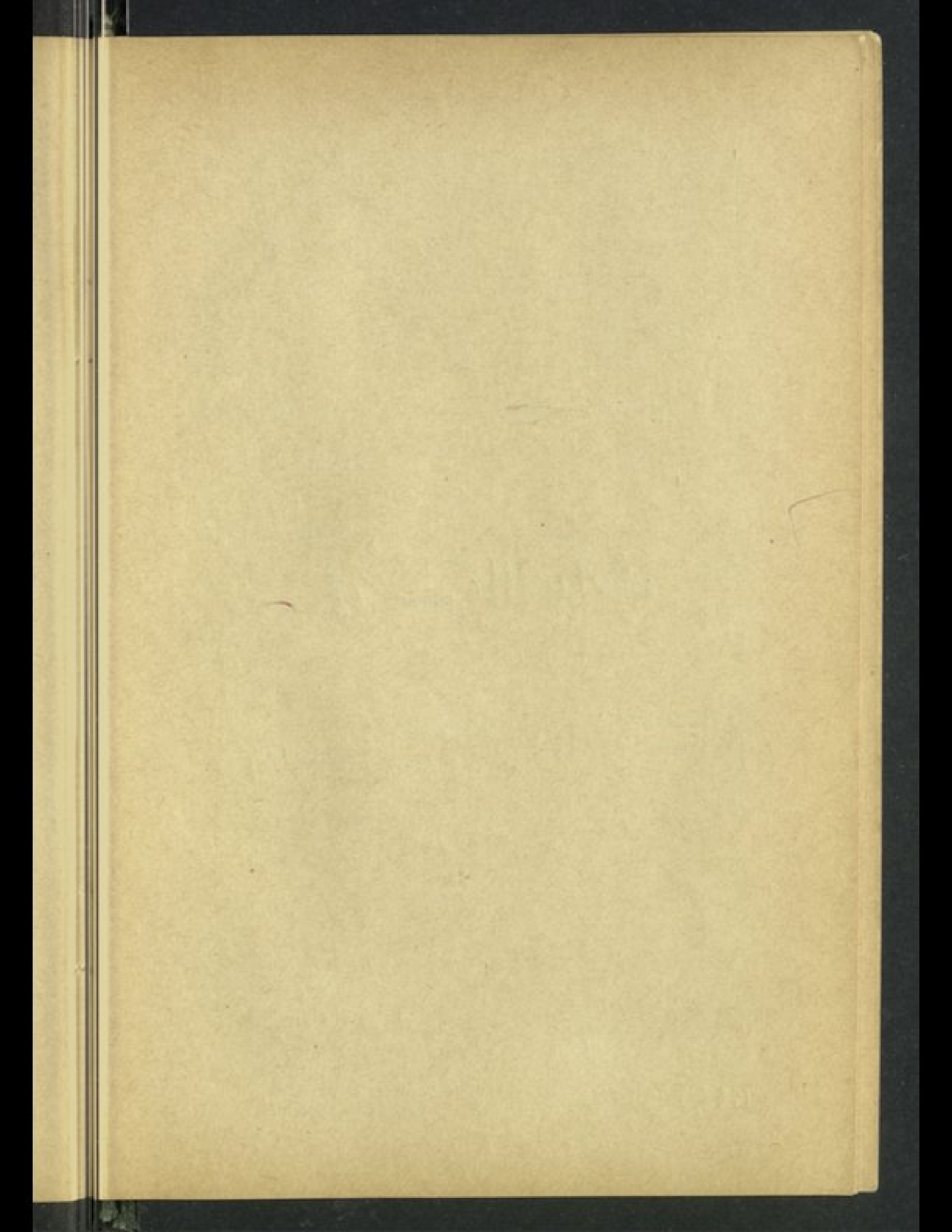
---

* ٢٧ آذار سنة ١٩٤٩

فى غمرة الأحداث

La Prusse n'est plus un pays qui a une armée,
c'est une armée qui a un Pays.

Mirabeau



مصير الديمقراطية السورية

•

قد يهمكم كبرلمانيين وديمقراطيين ان تسمعوا شيئاً عن حالة الديمقراطية في سوريا ومصير البرلمان الذي نمثل بين ايديكم .

لقد ذكر الدكتور حسين هيكل باشا هذا الصباح ان انقلابين وقعا في سوريا خلال الاشهر الخمسة المنصرمة وتمنى ألا يؤدي ذلك الى ضياع استقلال سوريا وتساءل الكثيرون عن اسباب العاصفة .

اهي ناتجة عن طموح الرجال ؟ ام فشل المؤسسات الديمقراطية في المجتمع الشرقي ؟ ام ضعف كامن في الدولة الحرة ؟

ان الحدث التاريخي لا يمكن ان يفسر تفسيراً كاملاً بخُلق فرد من الناس .

والديمقراطية السورية ، من جهة اخرى ، سارت سيراً

مرضياً قبل الثلاثين من آذار . كان دستورنا من افضل الدساتير في العالم وكان شعبنا يتمتع بجميع الحقوق الممنوحة للانسان في بلاد الغرب .

اما ضعف الدولة الديمقراطية فاني اعتقد ان المفكر الطلياني « ملابارت » لم يكن مخطئاً حين زعم ان جميع الدول الحديثة الحرة معرضة لخطر الوقوع في يد عصبة منظمة من الناس تقدم على احتلال المراكز الرئيسية في قلب العاصمة بعد منتصف الليل .

لنذكر هذا كله حين نشير الى عاملين او ثلاثة عوامل هددت حياة الديمقراطية السورية .

في المقام الاول تأتي قضية فلسطين . لقد نوه الامين العام (سكرتير الاتحاد البرلماني الدولي) في تقريره السنوي بانشاء دولة اسرائيل واعتبر ذلك حدثاً سعيداً في التاريخ . سيعذرني الامين العام ان نظرت نظرة اخرى . اني اعتبر نشوء اسرائيل مأساة من الدرجة الاولى وحدثا مفجعاً تبكي له الملائكة .

ان الاتحاد البرلماني المجتمع في عاصمة السويد لا يستطيع ان يرحب بتكوين امة ابتدأت حياتها الدولية بقتل الكونت برنادوت ابن السويد النبيل وخادم الانسانية .

يجب ان يتردد العالم طويلاً قبل ان يضم اليه امة خلقت مع المرارة والبغضاء وكرست نفسها لانشاء دولة في القرى المهجورة التي اضحى اهلها الاصليون مليون لاجيء

عربي .

عندما انشئت دولة اسرائيل بتأييد الدول الكبرى تحقق الناس ان السلام لم يعد ممكناً في الشرق الاوسط . لقد اصبحنا امام دولة صغيرة تنوي قبول عشرة ملايين يهودي من جميع اطراف العالم ، يعني دولة لا بد لها من التوسع بالحرب والغلبة .

وشرع بعض السوريين يفكرون بان على سوريا ، اذا ارادت البقاء ، ان تصبح دولة عسكرية منظمة لأغراض الدفاع . وعندما بدأ النـــاس يشكون بقدرة الديمقراطية السورية والجامعة العربية على حماية السوريين والعرب تقدم الجند وتسلموا السلطة وسيروا آلة الدولة بنظام عسكري .

والعامل الثاني كان في رغبة ملحة عند الحالمين والمتطرفين والناقمين لاصلاح الدولة حسب ما يتراءى لهم الاصلاح .

والعامل الثالث لم يكن اقل من لعبة الدبلوماسية الخفية في الشرق العربي .

حضرة الرئيس : لقد كنا حريصين على حضور هـــذا المؤتمر لنؤكد للعالم أننا ما زلنـا مخلصين لمبادىء المؤسسات النيابية ولنقول لكم ان الديمقراطية السورية تسترجع صحتها وشبابها بخطى سريعة .

إننا نعتقد اعتقاداً جازماً ان الحكم النيابي مع كل اخطائه خير طريقة ممكنة للحكم .

ونعتقد ان التقدم بالتدرج والنشوء خير واسلم عاقبة من الثورة والتغيير السريع .

ونعتقد ان حكم الاكثرية اسعد من حكم اية قلة كانت .

وإنا رغم فشل الدول العربية في انقاذ فلسطين نتطلع الى الجامعة العربية ونرعاها ونأمل ان ننشيء منها اتحاداً عربياً يساهم في امن الشرق الاوسط وسلام العالم* .

---

* خطاب ألقي في المؤتمر البرلماني الدولي المنعقد في استكهلم في الثامن من ايلول ١٩٤٩ .

ازمة الخلق العربي

•

تعودنا ، ايها السادة ، ان نقصد بيروت طالبين للعلم والمعرفة ملتمسين الحكمة والنور في جامعاتها ومعاهدها ومنتدياتها لذلك كان من الخير ان يترك في آخر هذا الحديث مجال للمناقشة والمذاكرة في امر جليل من امورنا العامة ، فأني حريص على ان أطلع على آرائكم واستنير ، ومن العدل ان اسمع منكم كما تسمعون مني .

وبعد ، فحديثي عن الخلق المدني وليس عن الاخلاق الخاصة ، وبعبارة ادق ، فان حديثي عن العربي كمواطن . فلا يعنيني سلوكه في مشاهد الحياة الخاصة الا بقدر ما يؤثر هذا السلوك في سيرته في الحياة العامة ونهجه كمواطن في الدولة وكعضو في العائلة العربية الكبرى .

والعربي ، ما دمنا في مجال التعريف ، هو كل من تكلم العربية وشعر انه عربي .

لا اكتمكم ايها السادة اني عندما اذكر « العرب » و « العربي » و « العروبة » يعتريني شعور معقد هو اقرب شيء الى الحياء والصغار . قبيل الحرب العامة الاخيرة ونحن طلاب بالجامعة الاميركية كنا نفاخر بعروبتنا واذكر ان من امجد لحظات الحياة لحظة كنا نقف في العروة الوثقى وننشد :

للنسور
ولنا الملعب
والجناحان الخضيبان بنور
العلى والعرب

وقد وصل ذلك الاعتزاز العربي الى اوجه عندما طلعت جامعة الدول العربية على الدنيا مع الربيع سنة ١٩٤٥ . وقد اخذتنا النشوة يومذاك بالحدث العربي العظيم والفنا في بريطانيا « جامعة الطلاب العرب » تيمناً وتبركاً وتفاؤلاً بجامعة الدول العربية .

اما اليوم فانا لا نذكر « جامعة الدول العربية » الا بلهجة تخالطها المرارة والنقمة والازدراء واصبحنا نستحي من العرب والعروبة لان عاراً كبيراً لحق بهما .

وكل ما ارجوه هو ان نمهد الآن بتفكيرنا للعمل العربي الاصيل الذي سيمحو هذا العار في يوم من الايام .

بديهي اني لا استطيع ان اتكلم عن عربي الجزائر او

عربي اليمن ، وحتى عربي العراق ، عن خبرة ومعرفة . ولهذا وجدت من المناسب لاغراض هذا الحديث ان اتخذ السوري ممثلاً للعربي واتعرف بواسطتــه الى نواحي القوة والضعف في الشخصية العربية .

لماذا اتخذ سوريا الطبيعية نموذجاً لبلاد العرب ؟

وما الذي يبرر هذا النهج في الدراسة والبحث ؟

اولاً : لسبب شخصي بسيط هو اني اعرف سوريا اكثر من اي بلد عربي آخر . فيها نشأت واتيح لي ان اشارك في حياتها العامة واتعرف الى ساستها وشئونها من قريب .

ثانياً : اذا اردنا ان نحكم على امة فاننا نحكم عليها بافضل نماذجها . فاذا اردنا مثلاً ان نقابل عبقرية الالمان في فنون الحرب مع عبقرية الفرنسيين او الانكليز فاننا نقابـل قادة الجيوش العظام ونضع « رومل » امام « مونتغومري » و « ولنغتون » امام « نابليون » . واذا تاملنا السوري وجدناه بمجموعه وعلى علاته ، في مقدمة العرب فطنة وذكاء وشعوراً بقوميته العربية . ولعل خير ما يعبر عن رسالة السوريين في قضية العرب قول فيصل العظيم في خطـاب له في دار الحكومة بدمشق في ٥ ايار ١٩١٩ :

«لا شك ان المسئول في الحركة الثورية هو اولاً والدي ثم الحجازيون مادة ، الذين قاموا بها فعلاً ، اما السوريون فانهم مسئولون عنها معنى لانهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة . »

ثالثاً : الازمات الكيانية التي تلامس الاعماق حدثت ، بعد انشاء الجامعة العربية ، في سوريا الجنوبية وفي سوريا الشمالية . في قضية فلسطين وفي استقـــلال سوريا امتحن العربي وامتحنت اخلاق العربي فوجدت ناقصة .

ان مأساة فلسطين وانقلابات سوريا كشفت الخلق السوري ونزعت الحجب عن الشخصية العربية في القرن العشرين .

لا انكر بعض الظروف القاهرة الخارجة عن نطـــاق ارادة العرب ولا يمكن ان نتجاهل لعبة الدبلوماسية الخفية في الشرق العربي كله ، فدبلوماسية الزيت غير خفية ودبلوماسية الحرب لم تعد سراً من الاسرار .

ولكن لا بد ، بعد ان نقول هذا ، من ان نلقي ما تبقى من المسئولية على « الشخصية العربية » . يقول كاسيوس في مسرحية شكسبير « يوليوس قيصر » :

Men at some time are masters of their fates
The fault, dear Brutus, is not in our stars
But in ourselves.

اجل ، العلة في نفوسنا لا في اقدارنا وحظوظنا .

ان الشخصية العربية لم تستطع ان تقابل في فلسطين شخصية يهودية مؤمنة مستبسلة متفانية في سبيل تحقيق حلم كبير او صغير .

تلك الشخصية العربية عندما اتيح لها ان تستقل بشئونها لاول مرة بعد بضعة قرون لم تستطع ان تضبط نفسها ولا

ان تسوس بلادها وما زالت تتخبط حتى الان .

لماذا فشلت هذه الشخصية العربية في انقاذ فلسطين ؟

لماذا اخفقت في حكم نفسها وأضاعت جمهوريـــة كانت تتمتع بأكمل استقلال وانبل حرية واكرم حياة في الشرق العربي كله ؟

***

بالاسلام تكونت ذات عربية معروفة في التاريخ . هذه الذات الفذة التي كونها الاسلام فتحت الفتوح ومصرت الامصار وحكمت الامم بضعة قرون . وعندما خسرت حرارتها الروحية وصفاءها الاول وعصبيتها العربية والفضائل التي بها استحقت الرئاسة والسيادة استسلمت لحاكمين غرباء ووهنت واعتادت الخضوع وبقيت كذلك حتى اوائـــل القرن العشرين .

ولكن في الدولة العثمانية حدث شيء لبعض افــراد العرب . فقد ارسل بعض الطلاب العرب الممتازين الى الاستانة ودخلوا المكتب الملكي الشاهاني وكلية الحقوق والمدرسة العسكريـة وأعدوا هنـــاك ليكونوا حكاماً وولاة ووزراء وسفراء وقـــادة جند . هؤلاء الفـــوا الجمعيـــات السرية لتحرير العــرب ومهـــدوا للثورة العربية الكبرى . منهم من علق على اعـــواد المشانق في الحرب العالمية الاولى ، ومنهم من بقي وقاد البلاد بين الحربين في نضالها الطويل ومناهضتها للدول المنتدبـــة .

لنطلق على هؤلاء اسم « الرعيل الاول » .

هذا الرعيل كان يحمل فكرة الدولة . وكان واحدهم يطمح ان يكون رجل دولة ويعتبر الخدمة العامة شرفاً كبيراً وواجباً على المواطن القادر . وكان مما يميز هذا الرعيل ايمانهم القومي بامة عربية واحدة . ايمان نشأ وتثبت فيهم كرد فعل لتعصب الاتراك ورغبتهم في تتريك العرب من جهة ، ثم استجابة للفكرة القومية التي اجتاحت اوربا في القرن الماضي من جهة ثانية .

وفي فترة ما بين الحربين نشأ جيل مخضرم لم تكن عنده فكرة دولة ، لان الدولة التي عرفها كانت دولة منتدبة دخيلة ، وكانت الوطنية تقضي بمقاومتها . وقد كان من الفضائل في تلك الأيام تحدي الحكومة والسلطان ، والامتناع عن دفع الضرائب ، والتحايل على جباة الدولة والابتعاد عن الجندية والتماس شتى الطرق لمخالفة القوانين . وهذا التقليد المعادي للدولة هو اسوأ تراث خلفه عهد الانتداب لعهود الاستقلال .

وقد ضعف عند الرعيل الثاني التفكير بأمة العرب لان امة العرب لم تعد مجموعة ضمن الدولة العثمانية وانما اصبحت موزعة على دول ، وكل جزء منها مهتم بنضاله الاقليمي المحلي ضد الدولة المنتدبة . وبعد ان كان افق الرعيل الاول يشمل البلاد العربية جمعاء ضاق افق الرعيل الثاني فاقتصر على مدينة او بلد وراح يتعصب لدمشق او حلب .

هذا الرعيل لم يُعدّ للحكم ونشأ نشأة غير منظمة ولا موجهة في الجامعة السورية وفي جامعات فرنسا وسويسرا ، وتأثر تأثراً ظاهراً بالثورة الفرنسية وتقاليد الجمهوريات الفرنسية والمجالس التأسيسية وصناعة الدساتير .

اما الرعيل الثالث ، اما الاجيال الصاعدة فهي اسوأ الاجيال على الاطلاق . فمن ابرز صفاتها انه لا وازع لها . انها مأخوذة ببضعة افكار مشوشة مضطربة لاضابط لها . لها طموح شخصي ضيق خطير لا حد له ، وعندها نقمة على كل سلطة . فلا احترام لأب او معلم او رجل دولة . وإني ضارب لكم مثالاً على عقلية طلاب الجامعة السورية وفكرتهم عن الوطنية . كنت احاضر مرة في معهد الحقوق عن الدستور الانكليزي وتعرضت في اثناء المحاضرة الى طلاب الجامعات القديمة في انكلترا فجاءني طالب في السنة الثانية وسألني : « يا استاذ الا يُضرب طلاب اكسفورد وكمبردج ؟ » فقلت « لا » ، قال : « عجيب ! اليس عندهم شعور وطني ؟؟ » . تأملوا هذا الغر من ابناء دمشق يظن ان الوطنية في اضراب الطلاب وتظاهراتهم في الشوارع .

عقلية الطلاب هذه اخطر بكثير من الانقلابات المتكررة والفوضى السياسية التي اصبحت نظام الحياة العامة في سوريا .

والملاحظ ، ان زمام الطلاب افلت من ايدي المعلمين في

السنوات الاخيرة، وتولى تربيتهم او عدم تربيتهم زعماء غوغائيون خارج المعاهد وافهموهم ان الوطنية تظاهر في النهار ، وكيد في الليل ، واضراب عن الدروس واسقاط الحكومات وتحدي السلطات واتهام الحكام بالخيانة العظمى .

اخطر ظاهرة في حياة المجتمع السوري القائم او المتداعي هو ان المعلم السوري تخلى عن رسالته . وفشل السوريين في الحياة الحرة هو بالدرجة الاولى فشل المعلم السوري . لقد قنع بان يلقن الطلاب بعض معلومات الكتب فلم يساهم في تكوين شخصيات طلابه وخلق جيل جديد صالح للحياة الكريمة الحرة . وعوضاً عن ان يكون موجهاً وهادياً واميراً اصبح تابعاً للغوغائيين ضئيل الشأن او منزوياً في بيته منطوياً على نفسه ، هين الشأن ايضاً .

كيف نفسر فشل المعلم السوري ؟ باحثت بعض كبار رجال التربية في سوريا في هذا الامر فلم يستنكروا هذا الاتهام وانما اختلفوا في تعليل الفشل . فقال احدهم : « ان المعلم السوري غير مرتاح مادياً » . يعني بذلك ان راتب المعلم ضئيل وهذا يصدق على اساتذة الجامعة السورية الذين يلتمسون عملاً آخر الى جانب التعليم لكي يحافظوا على مستوى لائق من العيش الكريم ، ولكنه لا ينطبق على رجال التعليم الثانوي والابتدائي ، اذ المعروف ان موظفي المعارف احسن حالاً وانعم بالاً من سائر موظفي الدولة السورية .

وقال آخر : « المعلم يخشى الغوغائيين والحزبيين من طلابه فهو بين ان يكون حزبياً تابعاً او متجنباً لمواضيع الحياة العامة مقتصراً على اداء الواجب في قاعة الدرس . »

وقال ثالث : « المعلم يدخل الاحزاب ويتبع من هو دونه علماً وخلقاً وفضلاً ليحفظ حقوقه المسلكية في الترفيع وزيادة الرواتب » .

وقال رابع : « المعلم بحاجة الى تعليم والمربي بحاجة الى تربية » . وهذا دليل على ان دور المعلمين الكثيرة في سوريا لا تقوم بمهمتها على الوجه الصحيح .

في دمشق الآن جمعية تأسيسية تضع دستوراً جديداً للبلاد . والمناظرات تشتد في لجنة الدستور وفي الصحافة وعلى المنابر . هل يكون الاسلام دين الدولة ، أو دين رئيسها ، او لا يكون للدولة دين ؟ هل يكون شكل الحكم رئيسياً كما في الولايات المتحدة او برلمانياً وزارياً كما في انكلترا وفرنسا ؟ ويظنون ان هذه الوثيقة متى اخرجت للناس بالفكر التقدمية ، والعبارات البارعة والصياغات الجميلة ستكون وصفة طبية لشفاء جميع الامراض والاعراض وحلاً لمشاكلنا المتعددة .

سألني كبير في دمشق : « ما رأيك بالدستور ؟ » فقلت اني لا اؤمن بصناعة الدساتير وضربت له مثل بريطانيا : « انها مثل اعلى للدولة ومع ذلك ليس عندها دستور مكتوب مجموع بين دفتي كتاب ، ولا

اذكر انها انتخبت جمعية تأسيسية لتصوغ قانونها الاساسي كما يفعل الفرنسيون . الاصل في اخلاق المواطن وحبه للدولة واستعداده لاطاعة القوانين » ، ثم اقتبست له قول سقراط في الجمهورية : « او تحسب ان الدساتير تصنع من الصخور او الاشجار وليس من نزعات المواطنين التي تميل بالميزان وتدفع كل شيء في اتجاهها ؟ »

اني اعتقد ان الدستور المكتوب لا يقدم ولا يؤخر . واذا بقيت الحالة كما هي الآن ولم يحدث انقلاب في النفس السورية فالمستقبل مظلم وقد نقع تحت نفوذ اجنبي مباشر او شبه مباشر لا ندري كم يطول هذه المرة .

وتسألون عن طريق الخلاص :

الخلاص في تكوين نفس عربية جديدة . نفس قد تكون وجدت قبل الآن في افراد قلائل ولكنها لم توجد حتى الآن كنفس قومية شاملة .

الخلاص في اعداد شخصية عربية للمجتمع العربي الجديد وللمسؤوليات التاريخية التي تجابه العرب . والعمل الاساسي يجب ان يبتدىء مع الفرد « لان الامم لا تنشأ الا بنشوء افرادها » ، كما يقول امين الريحاني .

كيف نكوّن هذه النفس العربية الجديدة ؟

اولاً : بالمدارس ، وهذه طريقة طويلة لكنها مضمونة النتائج . وهي الطريقة التي اختارها « فيخته » Fichte لانهاض المانيا بعد ان اذلها نابليون .

يجب ان ننتزع الطفل من بيته ومن مجتمعه ونضعه في مدرسة داخلية تعطيه صورة قوية عن المجتمع الفاضل وتغرس فيه الفضائل المدنية . ليتعشق الطفل النظام الاجتماعي الكريم ويحب الدولة وليتعلق قلبه بامة عربية خالدة يخلد بواسطتها الافراد . وليؤمن الطفل بالله ، بانه اعطانا كل شيء وليعتقد ان مواهب الفرد ملك للمجتمع وان افضل طريقة لشكر الله وعبادته هي في خدمة الانسانية القريبة منا المجاورة لنا المدعوة « امة العرب » .

واذا لم يتيسر هذا على نطاق واسع فلنعمل على ايجاد طبقة ممتازة نخرجها للحكم والقيادة في شتى الميادين. ننشيء مدرسة او اكثر للحكام ونأخذ اصحاب المواهب لتتبناهم الدول وتنشئهم تنشئة خاصة . وهذا ما اقترحته في المجلس النيابي السوري اكثر من مرة ، وفي محاضرة عامة القيتها في الجامعة السورية (كانون الثاني ١٩٤٨) وفي كلية البنات الاميركية ببيروت (شباط ١٩٤٨) موضوعها « تثقيف الحكام » . واذكر ان بعض طلاب الجامعة الاميركية اتهمني يومذاك باني صاحب نزعة رجعية محافظة ارستقراطية . وقد يسرّ هؤلاء ان يعلموا ان روسيا ، الدولة المتناهية في الديموقراطية الاجتماعية ، يقوم نظام التربية فيها على اساس ارستقراطي فهي تنتقي في آخر مرحلة التعليم الابتدائي أفضل الطلاب وتدفعهم الى المدارس الثانوية وفي آخر هذه المرحلة ايضاً يجري انتقاء آخر

ويرسل الممتازون الى الجامعات . واني ادعو ههنا الى ارستقراطية في التعليم تقوم على اساس الموهبة الحقيقية والامتياز الطبيعي ، وهكذا فهم الارستقراطية ارسطو العظيم .

انا اذا ابتدأنا الآن بتربية جيل جديد فقد تجيء اولى النتائج المرغوبة بعد ربع قرن .

اما الطريقة الثانية فهي « الزعامة الملهمة » . وهي طريقة سريعة لا يستغرب ان تستجيب لها الطبائع العربية تحت ضغط الحوادث الكبيرة والاخطار .

يرى ابن خلدون ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية أو اثر عظيم . وعندنا ان عهد النبوات والولايات قد انقضى ، افيكون مقضياً علينا ان نبقى ابعد الامم عن سياسية الملك كما قرر ابن خلدون ؟

ترى لو عاش ابن خلدون في أيامنا وتأمل في زعامات ملهمة شديدة الاندفاع قوية الايحاء كزعامة المهاتما غاندي او ادولف هتلر ، أما كان حسب لهذه الظاهرة الحديثة حسابها ؟

اني اميل الى الاعتقاد بان الزعامة الادبية الرفيعة التي تقوم على الايمان احمق الايمان ، وعلى الاخلاق اعظم الاخلاق ، تعمل في العصر الحديث عمل النبوة في العصور القديمة فتُكوّن الافراد من جديد وترفع نفوس الرجال

الى مستواها وتنشيء الامم وتدفعها نحو مصير افضل وخير اسمى . وقد اتيح لي في ايلول الماضي ان اشاهد تجربة من التجارب الانسانية الكبرى التي تتناول الاشخاص بالتغيير والتبديل ، فقد حضرت مؤتمراً في Caux بسويسرا لجماعة التسلح الاخلاقي Moral Re-armament التي كانت تعرف قبل الحرب بجماعة اكسفورد Oxford Group . وتعرفت الى عدد غير قليل من الذين احدثت رسالة الدكتور Frank Buchman انقلاباً اساسياً في حياتهم . رأيت شاباً المانياً كان في الحرب يقود غواصة في الاطلنتيك ، وسيدة فرنسية تتزعم عاملات فرنسا وقد خسرت في الحرب ولدين ، ورئيس بلدية هيروشيما التي اهدتها طائرات اميركا قنبلة ذرية . هؤلاء وامثالهم قد نسوا احقادهم وثاراتهم وتغيرت نفوسهم واتجهت جهودهم المشتركة الى انقاذ اوروبا والحضارة بالحب والايمان . اقول لمن يشك في امكانية التأثير على الطبيعة البشرية بالزعامة الملهمة : « اذهب الى (كو) فهي قائمة تتحدى كل من يعتقد ان الانسان فاسد وانه سيبقى كذلك الى آخر اخر الدهر . »

وانا لنعرف من تاريخ العرب انهم يستجيبون للفكر الكبيرة والزعامات الملهمة والتضحية والمروءات . وتلك مزية لحظها لورانس في « اعمدة الحكمة السبعة » حيث كتب :

Without a creed they (the Arabs) could be taken to the four corners of the world by being shown the riches of earth and the pleasures of it ; but if on the road , led in this fashion , they met the prophet of an idea, who had nowhere to lay his head,

and who depended for his food on charity or birds, then they would all leave their wealth for his inspiration.

وقد لخص هذا الرأي بجملة قصيرة وردت في احدى رسائله : « سيسعون (اي العرب) وراء الغنيمة الى آخر الدهر ولكن اذا ما اعترضت سبيلهم فكرة تركوا الغنائم وتبعوا الافكار » .

واخيراً اني مقتبس لكم قطعة صغيرة من قصة « تانكرد » لدزرائيلي تلقي ضوءاً على واقعنا وعلى ما نتوقع . يقول اللورد تانكرد للامير فخر الدين (وهو أمير من لبنان ، بارع ، طموح ، ذو فكر ودهاء .. يتقلص طموحه حيناً فيقنع بامارة الجبل ، ويمتد احياناً فيشمل شعوب الشرق) :

« اذا اردت ان تحرر بلادك وتكوّن امة من هذه الشعوب فلا تحسب الامر يتم بارســـال السفراء الى لندن وباريس ، فمن يدري ما يكون مصير المدينتين ، انمـــا ينبغي ان تصنع مثل محمد وموسى . ان العالم لم يغلب بالكيد والدهاء وانما غلب العالم بالايمان . واني لا اراك تؤمن بشيء . »

ويجيب فخر الدين : « الايمان ! اه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشيء ويكتسح الدنيا . »

فيعود تانكرد الى القول : « انظر يا فتى ، اني لا اجد ما يغري في اكتساح الدنيا من اجل بيت شهاب . ان البيت المالك يزول كسائر الاشياء وانما يجب ان يغلب

المرء العالم لينصر فكرة ، ان الفكرة وحدها تبقى الى الابد ، ولكن اي فكرة ؟ هنا الفلسفة وكل الحكمة ! »

والعجيب في الامر ، ايها السادة ، ان الفكرة العربية موجودة ، واضحة كفلق الصبح ، ولكن الفكرة العظيمة لم تلق بعد زعيماً ولم تصادف رسولاً .

اللهم متى تنقذ شعبك !

اللهم متى ! *

* محاضرة القيت في النادي الثقافي العربي ببيروت في ١٦ شباط ١٩٥٠ .

اين الجمهورية ؟

•

الجمهورية .. لست من عشاقها الجدد فقد اعتنقتها فكرة ، وعلقت بها صورة قبل ان توجد الجمهورية السورية اصلاً ، فلما ابتدأت سورية المستقلة حياتها الجمهورية الكريمة صور لي حب الدولة الفاضلة وخيال الشباب ان باستطاعة سوريا الناشئة ان تحذو حذو جمهورية اثينا على عهد « بركليس » وتسعى لتحقيق اسمى صور التاريخ والفكر عن الدولة المثلى ، وتطلعت الى يوم تصبح فيه الجمهورية السورية مدرسة العرب كما كانت اثينا مدرسة اليونان .

وعندما تعثرت الجمهورية في بعض الخطى ، كما كان من المنتظر ان تتعثر في خطواتها الاولى ، كنا من المترفقين بالجمهورية السمحة ومن المحبين لها على علاتها لان من احب شيئاً احبه على علاته .

واليوم كجمهوري وكمواطن سوري اود ، في الربع

الساعة الاخيرة ، ان اتحدث الى الجمهوريين من ابناء الوطن قبل ان تطوى نهائياً صفحة الجمهورية وتحل الكوارث الاخيرة بهذا الوطن .

الجمهورية ليست اسماً جميلاً نُطرب به آذان العامة ونسحر السامعين ، وليست شعاراً موفقاً نثير به الحمية في صدور الرجال . كما انها ليست علماً خفاقاً نحشد في ظله الاتباع والانصار ، وليست الجمهورية سطوراً لامعة وعبارات بارعة ومواد رائعة توضع في دستور وتجمع بين دفتي كتاب . وما هي بالرداء الخارجي يلقى على رئاسة الدولة ، فهناك جمهوريات حقيقية على رأسها تاج وهناك حكومات استبدادية تبدو للناس بزي جمهوري .

الجمهورية مبدأ حياة يستقر في حقيقة الدولة قبل ان يشيع في اسمائها ومظاهرها .

وحقيقة الجمهورية عدالة في كيان الدولة وحرية في سيرتها ، عدالة قبل كل شيء وحرية ضمن اطار العدالة . والعدالة التي نعني هي ، بتعبير افلاطون : **احترام الانسان لعمله الخاص وعدم التدخل في عمل غيره** . فالدولة جسم اجتماعي له رأس او يجب ان يكون له رأس وقلب واطراف . والحكام المختارون هم بمنزلة الرأس المفكر والمدبر في الدولة ، والمجلس هو القلب الخافق باماني البلاد ، والجنود هم الايدي المدافعة عن الجسم ، والصناع ما دون ذلك من اعضاء الجسم الاجتماعي .

وانظروا ماذا يحدث بجسم الانسان لو ارادت الرّجل مثلاً ان تعمل عمل القلب ، او لو حاولت احدى اليدين ان تقوم بوظيفة الرأس ، او لو سعى الرأس ان يحل محل الامعاء ، الا تختل وظائف الاعضاء جميعاً ويتداعى الجسم كله ويهلك آخر الامر ؟

يقول صاحب الجمهوريـــة على لسان سقراط : « اني ارى اذا ترفع قلب احد الصناع او التجـار من أي نوع كان اما بعامل الفن ، او بعامل العصبية او اعتداداً بالقوة البدنية ، أو بأي دافع كان ، فحاول ان يدخل صفوف المحاربين ، او اذا تطفل احـــد المحاربين على مجلس الشيوخ وطبقة الحكام ، او اذا تبادل هؤلاء الادوات والميزان ، او اذا حاول احدهم ان يقوم بكل هـذه الاعمال معاً ، فأرى انك تسلم معي ، **ان ذلك الفضول وتلك الفوضى يؤديان حتماً الى دمار الدولة** » .

ثم ان خير الجمهورية الاعظم وميزتها الكـــبرى هي الحرية : حرية المواطن في العيش وطلب السعادة ، حريته في إبداء الرأي وتصريف العمل ، حريته في اختيار نوابه ومراقبة حكامه بواسطة النواب .

فاذا منعت دولة ما الصحف الحرة من دخول بـلادها وحرمت ابناءها حرية الاطلاع على الانباء والآراء ، واذا ارسل كاتب او خطيب الى معسكرات الاعتقـال بسبب رأي ابداه ، واذا منعت الاجتماعات العامة وتعطلت عملية

نقل الأفكار وانتشارها ، واذا ابعد مواطنون كبار عن ميادين الحياة العامة ، واذا لم تترك آلة الحكم وشأنها لتقوم بعملها الطبيعي في اختيار النواب وتنصيب الوزراء ، واذا لم يكن الفعل الحكومي نتيجة ادارية او سياسية لنشاط رأي حر مستنير ، فان تلك الدولة لا تستطيع ان تدعي بحق امام المواطنين والغرباء ، امام الله والتاريخ ، انها جمهورية او شبه جمهورية او ظل ضئيل لجمهورية .

لقد يئس كثيرون من الجمهورية السورية بسبب هذا التناقض الصارخ بين الوقائع والاسماء . وحتى الاسماء توارت وجرى الحديث عن « دولة » و « رئيس دولة » وجمعية تأسيسية تبحث عن شكل من اشكال الحكم للدولة اليتيمة .

اني افتش عن الجمهورية في كل مكان فلا أكاد أجد لها أثراً ، وانما اسمع اصوات الجمهوريين هائمة في الفراغ الرهيب كأغربة سود تحوم فوق جثة عظيمة هامدة .

ايها الجمهوريون ، حاكمين ومحكومين ، ان كنتم حريصين حقاً على مصير الجمهورية فسارعوا الى ارساء سفينة الدولة السورية على اساس متين من رضا الجمهور ، ولينصرف كل الى عمله الطبيعي واختصاصه ، فالاختصاص لباب الجمهورية . واعلموا يقيناً انه لا يمكن انقاذ الجمهورية الا باحترام مبادىء الجمهورية * .

---

* نشرت في جريدة الفيحاء في ٣ تموز ١٩٥٠

الفراغ الرهيب

•

قبل ذلك الثلاثين من آذار كانت لسوريا جمهورية سمحة لعلها انبل جمهورية طلعت على افق الشرق القديم واتخذت مكانها بين الجمهوريات الكريمة في العالم الواسع .

وتمتعت سوريا بين الجلاء وبين آخر آذار باكمل استقلال في الشرق العربي كله وأوفر حرية في الشرق العربي كله . وكان نظامنا السياسي وطريقتنا في الحياة قدوة لقومنا العرب ومثالاً ، ولم نكن نقلد جيراننا وننقل الدساتير عن الامم .

وكانت سوريا ، على صغر مساحتها وقلة سكانها وحداثة عهدها ، الارادة العربية الصافية الموجهة لسياسة الجامعة العربية والمعدلة والناظمة لسياسات الدول العربيات وكانت متبوعة برأيها وحكمتها ونخوتها ولم تك قط تابعة او مدينة او ضئيلة الشأن .

وفي السياسة الدولية كانت تحتل المكان اللائق المرموق ويترأس مندوبها الفذ مجلس الامن ، وكانت شهرة سورية بين الامم اعظم من حقيقتها بكثير .

ووقع انقلاب او « ضربة حكم » جاءت بعده دكتاتورية سافرة كانت لها مزاياها ونقائصها كنظام حكم ، الا ان الاخلاق التي اضاعت النظام التمثيلي الكريم لم تستطع ان تفيد من حكم مستبد ، والعوامل التي ادت الى انهيار الجمهورية تقدمت معظمها ، ثانية ، لتهدم الدكتاتورية فذهبت دولة الزعيم مع الريح ووجدت حالة من الحالات ما هي بالحكم الشعبي الواضح ولا هي بالحكم الفردي الصريح ، وليست جمهورية وليست دكتاتورية ، وليست حكماً مدنياً خالصاً ولا حكماً عسكرياً خالصاً ، وما هي بحكومة نيابية تعرف او حكومة « اولغارشية » توصف ، وانما هي بين بين ويختلف وجهها وشأنها بين الشهر والشهر واليوم والآخر .

ونتج عن هذا الغموض والابهام وعن تداخل السلطات وتشابك الصلاحيات ، وعن هذا التقلب الدائم والتحول المستمر ، فراغ مخيف في الدولة السورية هو عبارة عن فقدان السلطة الحقيقية في البلاد .

اننا لنقرأ في الكتب ان المجالس في الديموقراطيات تمثل سلطان الامة وان الجمعيات التأسيسية هي الامة مصغرة ومجتمعة في مكان ، وعليه فقد كان بالامكان – مع اسدال الستار

على نسبها وظروف مولدها ـ ان تعتبر الجمعـــية التأسيسية السورية صاحبة السلطان ومنبع السلطات جميعاً . الا ان الجمعية فقدت سلطتها الادبية والفعليـــة منذ الايام الاولى وافلت من يدها الزمام واعترف بهذا اصحاب الجرأة من اعضائها .

وتساءل الناس عن سلطان آخر . فالحكومة التي اشرفت على الانتخابات وارادت ان تبتدىء الحياة السورية « من الارض » جاءت الى سراي المرجة بارادة « القائـد العام للجيش والقوى المسلحة » وقد كان بامكان قيادة الجيش ان تحتفظ بالسلطان الكامل وتفرض حكماً مطلقاً على البلاد ولو الى حين . والحكم المطلق شكل معروف من اشكال الحكم وله محبذون في الشرق والغرب ، وقد كتب بسمارك في مذكراته :

« ان الحكم المطلق بدون مجلس نيابي هو اقل خطراً من حكم مطلق يستند الى مجالس طيعة . ذلك ان النوع الاول من الحكم يوضح التبعات ويجعل الفرد مسؤولاً عن عمله . اما النوع الثاني فيضيع المسؤوليـــة لانه يبرر كل شيء برده الى الاكثرية . »

لكن التصاريح الرسمية المتتالية كانت تؤكد دائماً بأن الجيش لا يتدخـل في السياسة ، وكان المدنيون يقبـلون هذه التصريحات بطبيعة الحال ويرحبون بها .

وهكذا ظل مقر السلطان مجهولاً ، وإنا حتى كتابة هذه

السطور لا نعلم من هو المرجع النهائي في هذه الدولة .

أهناك سلطة خفية كالكهرباء تلمس آثارها ولا ترى ؟ ليس اخطر على حياة الدول وحريات الشعوب من السلطات الخفية لأنها تسير كل شيء على هواها ثم لا تحد ولا تضبط ولا تناقش ولا تقنع ولا تحاسب عن شيء من الاشياء .

ولا يمكن ان يطمئن الناس الى نظام حكم تضيع فيه التبعات والمسؤوليات ولا يعلم الرأس المفكر وراءه ولا الغرض الذي تجري اليه الدولة على يديه .

والعرب قلقون لهذا الوضع الغريب متلهفون على مصير سورية . والدول الطامعة تحيط بهذا الفراغ الهائل وتنتظر الفرصة السانحة لتملأه بنفوذها من جديد .

ان الطبيعة تكره الفراغ ولا تسمح بوجوده ، والدول الكبيرة تحب الفراغ وتسرع لتملأه بولائمها وآداب سفرائها اول الامر ، ثم بثقافتها ، ثم ببضاعتها وسلعها ، ثم بمعسكراتها ومطاراتها ، وموانئها وجيوشها عند الاقتضاء !

وقد خشي الناس تصريح الدول الثلاث وقالوا هذه فرنسة تعود ، وانه تصريح خطير . الا ان السياسة التي املته لم تكن بالامر الجديد فقد جرى اتفاق في الثالث عشر من كانون الاول سنة ١٩٤٥ بين فرنسة وانكلترة يسمح لفرنسة ببعض الامتيازات في سورية ولبنان ، ولم تستطع فرنسة ان تطبقه لانه كان في سورية يومذاك دولة

مستقرة وسلطان . اما اليوم فلا تجد فرنسة امامها غير الفراغ الرهيب . وقلما تهدم الدول من الخارج ، واكثر ما تنهار الدول بضعفها الداخلي واذا بقي هذا الفراغ السوري فستحاول فرنسة ان تملأه فان لم تستطع فانكلترة بالمرصاد ، فان لم تستطع فالولايات المتحدة على اتم استعداد .

ولو ان سورية كانت نموذجاً للدولة الحديثة قوة وحضارة ونظاماً وكانت احزابها مثالاً في الوطنية والتربية السياسية وكان جيشهـــا مائة الف وكانوا منصرفين جميعاً الى شئون الدفاع ، لما استطاعت سورية ان تحافظ على ثروتها الطبيعية ومركزها الستراتيجي وحدودها الواسعة الا باليقظة التامة والحظ المؤاتي والجهد الجهيد ، فكيف تنجو سورية اليوم وهي فراغ كبير وفوضى وبحران .

هل يستطيع هذا الفراغ ان يواجه الاحداث العالمية المنتظرة ويرد كيد اليهود ويدفع عنا مطامع الدول ؟

ان هذا الفراغ مخيف ، رهيب ، خانق ، قاتل . واذا لم تملأه ارادة الشعب وحكمة قادته الطبيعيين بسلطة حقيقية صالحة فستملؤه امتيازات الدول وجحافل الاعداء .

ويا ويحنا إذا صرنا كما قال علي بن ابي طالب في قوم آخرين : « غرضاً لنابل ، وأكلة لآكل ، وفريسة لصائل » ولا حول ولا قوة الا بالله * .

---

* نشرت في جريدة الفيحاء في ٤ تموز ١٩٥٠

الشعب الذي لم يتكلم بعد ...

•

لا اريد ان اثير احقـــاداً او احرج افراداً واوزع المسئوليات على الآخرين . ولكني اشعر لدى كتابة هذه السطور أني اؤدي واجباً علي . ان الذي يدفع هذا العاجز الى اخذ القلم هو اعتقاده ان الحاكمين والمحكومين مسئولون جميعاً عن مصير الدولة ، ونحن في سفينة واحدة مهما اختلفت حظوظنا واقدارنا وفضائلنا وافهامنا ، وانـــه ليس من الوطنية في شيء ان نتصدى للحياة العامة ونتبرع بخدماتنـا للدولة حين تكون بخير وهناء وتكون السياسة يسراً كلها وجمالاً ونباهة ذكر ، ثم نقبع في بيوتنـــا ونتوارى عن الانظار او نصطنع الترفع عن السياسة اذا مـا اتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل .

يقول بركليس في وصف فضائل مواطنيه : « والمواطن الآثيني لا يهمل الدولة ليهتم بشئونه الخاصة . وحتى اولئك

المشتغلون بالتجارة والاعمال يتابعون قضايا السياسة . ونحن وحدنا بين الامم لا ننظر الى الرجل الذي لا يهتم بالشئون العامة على انه مسالم وغير مضر ، وانما نعتبره عديم النفع لا خير فيه » .

والذي يلفت الانظار في مسلك الشعب السوري خلال السنة الاخيرة هو انه كان بمجموعه ، وبصورة عامة ، منفعلاً لا فاعلاً ومتفرجاً لا عاملاً رغم الحوادث الخطيرة التي حدثت وما تزال تحدث باسمه وبين يديه .

ورغم هذه اللامبالاة التي ابداها الشعب يطيب لبعض الناس ان يشبهوا الانقلابات السورية بالثورة الفرنسية ، والفرق بينها بعيد . فالثورة فكرة كبيرة يعلنها دماغ جبار مثل روسو ويتبناها قادة من طراز روبسبيير ودانتون فتتخذ الفكرة سبيلها الى عقول الناس وقلوب الناس وتنتشر وتحرك الجماهير وتدفعها في تيارات شعبية عنيفة تزلزل من كيان المجتمع وتنشيء نظاماً اجتماعياً او سياسياً جديداً على انقاض المجتمع المنهار .

اما الانقلاب فتقوم به قبضة من الناس وتستولي على الحكم والشعب في عزلة تامة عن الامر ، وقد ابان المفكر الطلياني « ملابارت » في كتابه الفريد « تكنيك الانقلاب » ان جميع الدول الديمقراطية الحرة معرضة لخطر الوقوع في يد عصبة منظمة مدربة تقوم باحتلال المراكز التكنيكية في قلب العاصمة بعد منتصف الليل .

والواقع ان كلمة « انقلاب » اوسع بكثير واعمق وابعد من « كوديتاه » Coup d'Etat التي لا تعني اكثر من تغيير في الحكومة عنيف مفاجيء غير شرعي ، وقد يكون من الادق ان نصطلح على « ضربة حكم » كما اقترح الاستاذ ساطع الحصري .

فالذى حصل في سوريا لم يكن انقلاباً الا بالمعنى الحرفي للكلمة (يقول الحريري في مقامته البغدادية : « وانقلب ظهراً لبطن » وهو مثل ضربه لكثرة اضطرابه) .

فالدنيا السورية لم تنقلب ولم يتغير في الدولة ، من حيث الحكم ، سوى بعض الحكام . واذا كنت مخطئاً في هذا فليخبرني اهل الانقلاب ما الذي تغير في الحكم غير بعض الايدي القابضة على آلة الحكم .

ثم اذا تساهلنا في موضوع التسمية واستعملنا كلمة « الانقلاب » على انها خطأ مشهور فأنا لنتساءل مع المتسائلين :

ما الذى حققته الانقلابات المتلاحقة من خير لسورية والسوريين ؟ اى اصلاح حقيقي جرى في الدولة ؟ هل زال الفساد وانعدم سوء الاستعمال الذى كان ينسب لعهد الجمهورية السمحة ؟ هل قوي مركز سوريا الدولي واحترمها الاصدقاء ورهب جانبها الاعداء ؟

هل اصبحت سوريا المنقلبة محور الحياة العربية الجديدة ومبعث الامل العربي الكبير ؟ هل ارتقت بين عشية

وضحاها اخلاق الساسة وآداب الخاصة وفضائل العامة ؟ وهل تغيرت النفس السورية وظهر الصلاح في سيرة المواطنين والحكمة والعفة في سيرة الحاكمين ؟ وهل زادت خيرات سورية وثروتها وعمرانها وسعادة شعبها ؟

قولوا لنا بربكم في أي شأن من شؤوننا تحققت فكرة الانقلاب لجهة الخير ؟ وهل تعدون ما انتهينا اليه بعد سنة وثلاثة اشهر نموذجاً عالياً للحكم الصالح والدولة الفاضلة ؟

اني لا اسأل استنكاراً ولا ألح في السؤال لأحرج المسؤولين لكني اريد ان اعلم على وجه التحقيق ويريد ثلاثة ملايين من السوريين وعشرات الملايين من العرب ان يعلموا فيم كانت هذه الانقلابات ؟

لنا الحق ان نعلم لان حياتنا وحرياتنا وحظوظنا ومصير بيوتنا وارضنا واهلنا في الميزان .

ان الشعب السوري ما زال في عزلته حائراً . ان هذا الشعب لم يتكلم بعد ، وقبل أن يتكلم يجب ان يعلم ويجب ان يصارحه قادة الرأي في البلاد بحقائق الامور .

ما اكثر الذين يلومون الشعب على فتوره وعدم اكتراثه بما يجري في دوائر الدولة العليا ، وانما يقع اللوم على قادة الشعب ، اهل الرأي والنظر ؛ وعلى رجال الجمهورية والعروبة القدماء . ان البحر لا يعلو بنفسه ويرتفع ، والموج العظيم لا يتحدى الشاطيء العنيد بدون رياح ، كذلك

جمهور الشعب لا يتحرك ويتسامى دون عقل جبـار او دافع حيوي عظيم .

ان الشعب السوري ما زال هو هو عربياً كريماً ، ابي النفس ، شديد البأس . ويوم يستيقظ ضمير هذا الشعب ويقتنع برأي وجيه ويطمئن الى زعامة محبة خيرة ويستجيب لنداء الوطنية والاخلاق صادراً من الاعماق الى الاعماق عندها يهب من سباته الطويل وينتفض كالنسر القديم ليضع كل شيء في نصابه .

يومئذ يبلغ الحـق مقطعه وتنجـو الدولة بعـزم الامور * .

---

* نشرت في جريدة الفيحاء في ٥ تموز ١٩٥٠

أول هذا الامر وآخره

وان تتولوا يستبـــدل قوماً غيركم
ثم لا يكونوا امثالكم
« قرآن كريم »

●

اتضح لنا انه ليس في البلاد رجل واحد او هيئة تستطيع بمفردها ان تقبض على ناصية الامر وتنقذ الدولة . ولو كان بيننا « كرومول » او « نابليون » او « غامبتا » لما تأخر ظهوره حتى الآن فقد كانت الفرصة سانحـة في السنة الاخيرة ، وعهود الاضطراب مسرح خصيب لبروز العبقريين والابطال ، والشخصية الفذة تفرض نفسها فرضاً ولا تنتظر آراء الكتاب واستفتاء الشعوب .

ولقد اصبح الشعب السوري بفقدان القيادة الحكيمة والزعامة الملهمة كـ « إبل ضل رعاتها ، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر » ، واصبح البحث عن الرعاة الصالحين واجباً مقدساً ومفتاحاً لحل الازمة .

ولست اقول بان الرعاة مفقودون لاني اعتقد ان الله سبحانه وتعالى الذي اراد لشعوبه الحرية والكرامة اعطى كل شعب نصيبه من الحكمة السياسية وهيأ له من يرعاه. كما اني لا اقول بأن الرعاة ضلوا وانما ازعم ان الرعاة تفرقوا وفي التفرقة ضلال لهم وللرعية.

يذكر الناس بفخر كيف تألفت ايام الانتداب جبهة من جميع العناصر الوطنية العاملة في البلاد ووحدت الكفاح ضد فرنسة تحت اسم « الكتلة الوطنية ». وكان النضال مجيداً رائعاً بفضل ذلك الاتحاد. وقد ابتدأت المأساة يوم تفسخت الكتلة الوطنية ودخل الرعاة عهد الاستقلال وهم جبهات واحزاب وافراد وآراء واهواء. وكاد بعضهم لبعض وهدم بعضهم بعضاً وتسرب الى صفوفهم من ليس منهم ومن لا تهمه قضية الوطن في قليل او كثير. فلم يستطع الحكام الوطنيون ان يفرضوا حكماً قوياً كما ينبغي ان يكون الحكم عند نشوء الدولة وتأسيس الملك، ولم تستطع المعارضة الوطنية ان تسعف الحكام وتجنبهم العثار وانما اثارت عليهم العامة والغوغاء الى ان خرجت الامور من ايدي الوطنيين حكومة ومعارضة.

— وفي بدء سنة ١٩٤٨ شعر كثيرون بالانهيار الوشيك ورأوا العاصفة تقترب فقاموا بمساعٍ لتقريب وجهات النظر بين رجال الرعيل الاول والرعيل الثاني وتأليف حكومة قومية لتجابه الاحداث الضخمة وتوقف سير الانهيار،

وكتب احدهم في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ اي قبل الانقلاب باربعة شهور :

« حذار حذار ايها القادة والساسة اذا لم ينهض النظام القائم بانقاذ الدولة من نفسها اولاً ومن عدوها ثانياً فسيتجه الناس الى رجل قوي داخل الحدود او وراء الحدود وينقادون اليه ويستسلمون . وان وراء الحدود من يكيد لجمهورية سورية وان داخل الحدود كثيراً من المغامرين الذين قرأوا سيرة هتلر وموسوليني ولينين وبشروا بحكم الفرد وسلطان الحزب . اذا زلزلت اركان الجمهورية ، لا سمح الله ، وانهار هذا البناء فلن يبقى حزب شعبي ولا حزب وطني ولا حزب جمهوري ، ان البحث عندئذ في مسئولية هذا الحزب او ذاك يصبح نظرياً لا طائل تحته وسيطوي الزمان سير الرجال وينسى اعمال زيد وطموح عمرو وجبن الآخرين . اما التاريخ فسيسجل حقيقة قاسية رهيبة : **انهارت الدولة لان رجال الجمهورية لم يحسنوا سياسة الملك وكل من لا يسوس الملك يخلعه** ، الا تخشون التاريخ ايها القادة والساسة والاقطاب ؟ »

لكن تلك الصيحة وامثالها ذهبت سدى ودفع الساسة السوريون الثمن من حظوظهم وكراماتهم ومن حرية البلاد وسعادة اهلها ، فهل اعتبر هؤلاء جميعاً بما حدث ؟ وهل استفادوا من دروس الكارثة ؟ وهل لهم ان يتداركوا الامر قبل فوات الاوان ؟

ان حزب الشعب لن يستطيع ان يحكم البلاد وحده وهو ان كان « يرأس » الآن فانه لا « يحكم » والوزارة غير الحكومة ، كما ان الحزب الوطني لا يستطيع ان يعود الى الحكم وحده ، ولن تستقيم الامور وتستقر الاحوال الا اذا اتفقت الاحزاب الكبيرة على ان تحتلف ضمن ائتلاف كبير كأن يضعوا ميثاقاً وطنياً مشتركا ثم يتنافسوا تنافساً مشروعاً لخدمة البلاد ضمن إطار الميثاق المشترك .

يستطيع رجال الحزبين الكبيرين اذن ، بالاتفاق ، ان يحكموا معاً او ان يتداولوا الحكم فيما بينهم ، ولكنهم بالاختلاف لن يحكموا ولن يكونوا شيئاً ، ولو كان الامر مقتصراً على اشخاصهم واحزابهم لكانوا في ذلك احراراً ، وانما على اتفاقهم او اختلافهم تتوقف حياة بلاد باسرها ومستقبل شعب الى امد بعيد . والشعب ، كما يقول فيصل العظيم ، وديعة الله في ايدي زعمائه .

لقد كانت امور لم يكونوا جميعاً فيها محمودين ، ولكن ماذا يفيدنا العيش في الماضي ؟ — بعد كارثة دنكرك وفشل الحلفاء في النروج اسقط مجلس العموم حكومة تشمبرلن وقام فريق منهم يطالب رئيس الوزراء الجديد بمحاكمة تشمبرلن وهاليفاكس وصحبهما بتهمة التقصير وسوء التدبير ، فكان جواب تشرشل القاطع :

« اذا انتصب الحاضر لمحاكمة الماضي فانا نضيع المستقبل . »

أيريد الساسة ان تضيع الدولة بالحقد والهوى . انه لا

ينبغي لرجل الدولة ان يسيره هواه . وليس الحقد مفهوماً سياسياً كما يقول بسمارك . كما انه ليس من الاخـــلاق العربية في شيء ولا من آداب السيادة وادوات الرئاسة .

ولا احمـل الحقــد القــديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

مقتضيات الازمة ، خطورة الحال ، مصلحة الجماعة ، المصالح الخاصة الواعية المستنيرة ، نداء التاريخ ، دعــاء الوطنية ، قواعـد الاخلاق ، وكل دافــع نبيل يشير الى ضرورة اجتماع الاحزاب المتفرعة في قيادتهـــا عن الكتلة الوطنية لتكون نواة عمل قومي شامل قد يستطيع بمعجزة ان يرد الدولة المحتضرة الى الحياة .

اني ارى اخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح بـــه اوله * .

---

* نشرت في جريدة الفيحاء في ٦ تموز ١٩٥٠ .

اهداف الشباب ومثلهم العليا

•

اغلب الظن ان اختيار هذا الموضوع لمحاضرة عامة لم يكن مصادفة واتفاقاً .

اليس مجرد هذا الاختيار تعليقاً رائعاً مختصراً على احوال الشباب عندنا ، وحظوظ الاهداف والمثل في بلادنا ؟؟

اني ارى ان صاحب هذه الدار حين فكر في مشاكل المجتمع واختار هذا الموضوع كان جاداً في التفكير ، موفقاً في الاختيار .

ولست واثقاً من ان التوفيق قد صادفه في انتقاء المحاضر ايضاً .. الكلمة في ذلك للجمهور الكريم ـ والمحاضر هو دائماً تحت رحمة الجمهور ـ ويا ويل المحاضر العاثر من جمهور السامعين :

ويل امه اذا ارتجل ٭ ثم اطال واحتفل

كما كانت تقول العرب .

وكتب الادب العربي مليئة بذم الخطباء وذكر عيوبهم ، ولن تجد في الادب العربي ذكراً للجمهور ، لان الجمهور هو المرجع دائماً وهو الحكم .

وجمهور زماننا اشد مراساً واصعب ارضاء من الجمهور القديم . ويزداد خطر الجمهور الحديث اذا كان ذكياً المعياً نقاداً ، الف ارتياد النوادي وشهود مجالس الادب ، واعتاد ان يأتيه كبار المحاضرين من مصر ولبنان والعواصم ، فهو يستمع ويقابل ويقارن ، وقد يعبث ويلهو ، ويمضي الى شأنه كأنه ما سمع وما رأى ..

واني ، ايها السادة ، لا اطمع في ان انجو من نقدكم ، وانما اطلب الرفق في الانتقاد . ان المحاضر الماثل امامكم ، ايها السادة ، يحتاج الى كثير من العطف والرثاء .. لقد استدرج الى التحدث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا ، ولم يبق له في الشباب نصيب .. وسيجري في طيات حديثه تيار خفي عميق من اللوعة والاسى لأنه مفارق ومودع وحزين . واعلم ان الشيوخ والكهول سيشجيهم هذا النغم الحزين لانهم مثلي قد فارقوا الشباب . والشباب منكم سيذكرون ان شبابهم هذا ليس ربيعاً دائماً وسيشاركون اخوانهم المتقدمين في الشعور برهبة القدر ..

وربما رأى صاحب هذه الدار بحكمته الا يختار لهذا الموضوع شاباً خاضعاً لطغيان الشباب ، ولا كهلاً بعُد عهده بآمال الشباب واحلامه ورؤاه ، وانما اختار محاضراً يودع

الشباب خارجاً منه ، ويستقبل الكهولة داخلاً فيها ، فهو لذلك خليق ان يكون له انس باهداف الشباب ومثله العليا ، وجدير بان يصطنع الاناة ويلتمس الحكمة شأن الشيوخ وشأن المكتهلين ...

والموضوع بعد ذلك ذو خطر ، لانا نعيش في عالم تزعزعت فيه عقائد وظهرت عقائد اخر ، وتداعت فيه قيم وارتفعت على انقاضها قيم ، وانهارت مثل وقامت بعدها مثل ، وشاعت اراء وذاعت دعوات وانتشرت نظريات . هذه الحال في عالمنا السوري الصغير ، وفي عالمنا العربي الكبير وفي العالم الانساني الاكبر .

ونحن حين نبحث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا فانما نبحث عن اهداف الانسان ومثل الانسانية في طور الشباب وهو طور التهيؤ والتدبر والاقدام . والخطة التي ترسم في اول العمر توضع للعمر كله . والحياة الجميلة هي فكرة في الشباب تتحقق مع اكتمال العمر ..

الاهداف والمثل الجديرة بالشباب ، اذن ، هي نفسها الاهداف والمثل الجديرة بالانسان . وان انبل الابحاث ، كما يقول افلاطون ، هو الانسان : كيف يجب ان يكون ، وكيف ينبغي له ان يعيش . وهذا لعمري اهم بحث على الاطلاق .

اني عند التفكير في امر الشباب الناشئين في بلاد العرب عامة وفي سوريا على الخصوص اجد نفسي مردداً ما قال

شوقي في انتحار الطلبة بمصر :

ناشيء في الورد من ايامه   حسبه الله أبالورد عثرْ

وقد رأيتم ورأينا شباب البلاد ومناط الامل ومعقد الرجاء يعثرون في الورد من ايامهم وتعثر معهم البلاد . والشباب فئات والعثار له حالات شتى والوان تدل بمجموعها وتناقضها على قلق النفس واضطراب الفكر وفوضى الامل .

اني اقترح ان نلم الماماً سريعاً بفئات الشباب التي تعثر او تتعثر في الورد من ايامها :

١) ولنبدأ باهون تلك الفئات — فئة الوجوديين ، وهؤلاء يكثرون في لبنان ومصر ، لكن لهم وجوداً ملحوظاً في سوريا ، واكثرهم قد مر بالحي اللاتيني بباريس اثناء الحرب الاخيرة او بعد الحرب واتصل من قريب او من بعيد بتلك الحركة الفكرية — العاطفية التي نشأت حول (جان بول سارتر) والتي يقال ان سارتر نفسه يبرأ منها ، ويمكن ان يلخص موقفها بقول الشاعر :

لا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدينْ
انت لا تأتي الى دنياك هذي مرتينْ

وانا اعلم ان الوجودية فلسفة عميقة محترمة وهي عند كيركغارد وهيدجر وسارتر قد تختلف كثيراً او قليلاً عن مذهب الوجوديين المنتشرين في زوايا الحي القديم ،

لكن الوجودية التي تسربت الينا والتي اندفع بعض الشباب في تيارها لا تؤمن بشيء ولا تتحمس لمبدأ او فكرة او مثل وانما تدعو الشباب ان يقبلوا على الحياة ويخوضوا في غمراتها ويأخذوا حظهم منها وان لا يعيشوا لغاية سوى غاية العيش ..

وان قسماً من شبابنا لم يسمعوا بالوجودية قـط ولم يتصلوا بها ، لكنهم في واقع الامر وجوديون بـدون فلسفة وادب لغو كثير .

٢) وقريب من الوجوديين الخياميون ، لكن للخيامية شأناً اخر . فقد نظر عمر الخيام في الكون وتأمل فما وجد غير قدر رهيب ولا عالماً وراء هذا العالم ، فراح يعزي النفس بارضاء الحواس ويحملها على قبول الاشياء كما هي او كما قدر له ان يراها .

ولم يكن الخيام غالياً في طموحه ولا كان مفرطاً ، وانما رضي من الحياة بغصن ظليل في قفر ، وديوان شعر ، ورغيفين مع زجاجة خمر ، وحبيب ...

اما اصحاب عمر الخيام المحدثون فبعضهم نظر في الحياة كما فعل عمر ، وبعضهم تأمل في حـال قومه فيئس من اصلاح الحال ، وأقامه الهم بين العجز والتعب ، فلجـأ الى اللذات هارباً من تبعات الفـكر ومسؤوليات المواطن وواجبات الانسان .

وهذا مذهب يغمره التشاؤم والظلام ، لا يرى صاحبه

شيئاً وراء الحياة ولا يكاد يرى شيئاً في الحياة بعد الشباب :

وربيع الحياة عهد الصباءِ
وحياتي كهذه الصهباءِ
حلوها المر فهي طبي ودائي
وببلخ او نيسبور سأقضي
فدعوني بعض اللبانة اقضي
عيشتي نشوتي وعمري شبابي
وغدا يهدم المشيب الشبابا

٣) وهناك فئة من الشباب ابعد هماً ، واكثر جداً ، واسمى فكراً ، وارقى شعوراً ، لها نواياها الحسنة ومثلها ولكن مثاليتها لا تصل الى درجة الايمان الحار العميق ، وحسن النية لا يصحبه صحة العزم وصدق الارادة .

نفوس كريمة على ضعف ، فهي تتخبط وتهيم ... انهم اشباه (هاملت) في مأساة شكسبير :

أ – منهم الضائع بين الشرق والغرب . نشأ في الشرق القديم واتصل بالغرب القديم في اوروبا او الغرب الجديد في اميركا طالباً للعلم فتأثر بالشرق والغرب جميعاً واصبح موزعاً بين عالمين ، وعرف شقاء الانقسام الداخلي في النفس بين طريقتين في الحياة .

وهذا الانقسام الداخلي يحدث توتراً في العقل والعصب

وينتج كآبة عميقة ، كثيراً ما تختفي معهما المثل ، وتصاب الارادة بالشلل .

لنا رفاق دراسة ... يذهب احدهم الى لنـــدن او باريس ويبقى في الغرب بضع سنين ثم يعود ، فلا يجد الامن والراحة وطيب العيش الذي ألفــه في الغرب ، وتحدثه نفسه بالرجوع فلا يستطيع فيعيش كئيباً لفراق عالم عرفه وافتقده الى الابد ، ويندب حظه ويلوم السماء لانها جعلت مولده في جحيم هذه البلاد ...

كتبت الى احد هؤلاء اقـــول : « ياأخي ، باريس ولندن ووشنطن وكل عواصم الدنيا لا معنى لها بدون دمشق وحلب وحماه - هنا حقيقتنا ومجدنا وشقاؤنا - هنا قدرنا . »

ولكن ما اضعف هاملت امام القدر .

ب - ومن اصحاب هاملت ناشيء يرى البون شاسعاً بين الواقع والمثل ، بين ما هو كائن وما يجب ان يكون . ولا يجوز ان نسرف في اللوم على الناشئـــين ، وانما ينبغي ان نسائل انفسنا ، ماذا هيأنا نحن لهم ؟

ماذا يرى الناشيء في البلاد ؟

يرى امة منقسمة على ذاتها تبحث عن شيء ولا تكاد تراه ، ويرى هيكلا اجتماعياً يتــداعى ، ويرى مشاكل العالم وتزاحم الامم ومطامع الدول ، ويرى .. ويرى .. فيصرخ مع هاملت صرخة اليأس والقنوط :

« ان الزمن لفي اعتلال واختلال ومن نكد طالعي ان اكون انا المنوط به علاجه والعودة به الى النظام . »

لكن صاحبنا الضائع بين الشرق والغرب ، او التائه بين الواقع والمثل ، لا يسقط بعظمة وجلال كما سقط هاملت قتيلاً في آخر المأساة ، ولا يهوي بروعة وجمال كما يهوى الشهاب ، وانما ينطفيء نوره شيئاً فشيئاً ، ويذوب كما يذوب السراج .

اعرف شاباً كان من المع الشباب في الجامعة . ذهب الى اوروبا واميركا في خدمة الدولة وعاد بالامس يحمل نظارتين غليظتين على عينيه ، وعلى كتفيه اثقال ... لقد ازداد علماً وفهماً ونضجاً ، لكنه فقد شيئاً اثمن واغلى من العلم والفهم والنضج ، فقد ذلك اللهب القدسي ، فقد ايمانه بنفسه وبقومه وانعدمت عنده الرغبة في التفوق والامتياز ... اكاد اقول انتهى وهذه كلمة رثاء ...

كم كان « امرسن » Emerson موفقاً حين خاطب الناشيء الاميركي في ايامه قائلاً :

« عندما تقول : سأفعل كما فعل الآخرون ، اني متخلٍ عن احلامي الاولى ورؤاي ، واكل من خيرات الارض ، ومودع الآمال والاحلام الى موسم آخر ... عندها يموت الرجل فيك ، عندها تذبل براعم الفن والشعر والابداع وتفنى كما فنيت من قبل في الف الف إنسان . »

٤) ولنترك اصحاب هاملت يهيمون في الارض

ولنتعرف الى فئة اخرى من الشباب لا ينقصها طموح وانما يأتي خطرها من شدة طموحها واندفاعه .

لا تظنوا ، ايها السادة ، اني عدو للطموح ، متهم للطامحين . اني ارى ، مع غلادستون ، ان الظمأ الى المجد قريب جداً من حب الامتياز الحقيقي . ولا شيء اعظم او اروع في حياة الامم والافراد ، على السواء ، من طموح نبيل مشروع يكون حافزاً للعمل الشريف النبيل .

ولكن ما اشد خطر الطموح حين يخطىء الشاب في اختيار الهدف . فما اقبح ، مثلاً ، المجد الذي طمح اليه المتنبي وصوره في شعر فخم جميل :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة
فما المجد الا السيف والفتكة البكرُ
وتضريب اعناق الرجال وان تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجرُ
وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تداول سمعَ المرء انمُله العشرُ

فهذا طموح جاهلي بربري عنيف لا يتصل بحق او خير او جمال ، كل ما يهم صاحبه ان يحدث في الدنيا ضجة وصخباً ، وان يتحدث به المتحدثون الى آخر الدهر .

ان قصة « فاوست » تتكرر دائماً في التاريخ ، وتذكرون ان فاوست وقع عقداً مع الشيطان وباع نفسه

وجسده وخلوده في سبيل الحصول على المعرفة والقوة والسلطان الى اجل مسمى .

وفي كل يوم يبيع نفسه للشيطان بائع في سبيل شهرة او مال او جاه عريض .

ان فاوست يطمح الى ما لا يجوز ويتحدى قوانين السماء فتغضب عليه السماء ويشقى .

وقد يكون الهدف بحد ذاته مشروعاً سليماً ، لكن الطامح اليه غير مُيَسّر له وليس عنده الامكانيات الروحية او المادية لتحقيقه ، فهو حين يحاول ان يحتل مكاناً لم تهيئه له الطبيعة يختل النظام الطبيعي وتضج باهلها الارض والسماء .

وقد يطمح الناشيء الى امر جليل ويجد في نفسه القدرة على اقتحام الطريق اليه لكن الدولة او المجتمع يقيم في طريقه العقبات . وويل يومئذ للمجتمع من الطامحين . ان اصحاب النفوس الكبيرة يتطلعون بطبيعة الحال الى نباهة الذكر ورفعة الشأن ، واذا لم يصلوا الى الصفوف الاولى بالطرق المشروعة امتلأت نفوسهم الخائبة ضغناً وحقداً وعنفاً فسلكوا الطرق الملتوية الى الوصول وزلزلوا اركان الاجتماع .

٥) لا يكون هذا العرض كاملاً اذا لم نذكر العقائديين من الشباب . هؤلاء وجدوا لهم اهدافاً ومثلاً وغايات جروا في اثرها فهم اقرب الناس الى المثالية ،

لكنها مثالية مغلوطة . واكثر هؤلاء الشباب يذهبون ضحايا لأول دعوة تصادفهم في بعض الطريق .

وقد اقبل الشباب في السنوات الاخيرة على المنظمات العقائدية اقبالاً يلفت النظر ، حتى ان رئيس الجامعة السورية وقف عند هذه الظاهرة في حفلة توزيع الشهادات في حزيران ١٩٥١ يقول :

« ... لقد غالى اهل هذا العصر في الايمان بالعقائد والنظم والمناهج ، وغدا الناس ، افراداً وجماعات ، يعلقون آمالهم في انهاض اممهم واصلاح البشرية ، على هذه العقيدة السياسية او تلك ، وهذا النظام الاقتصادي او ذاك . في حين انه يجب ان ننشد قبل العقائد والنظم والمناهج الرجال والنساء الذين سينفذونها ويوجهونها لخير المجتمع ورقيه . فالاهمية هي دائماً للعامل البشري الفعال ، للشخصية المبدعة ، لا للعقيدة المجردة والمناهج المنظمة . » انتهى كلام الدكتور قسطنطين زريق .

والشاب سمح الطبع ، خصب الخيال ، مستعد بالطبع للجري وراء الاهداف والمثل . وهو طموح يريد ان يصنع شيئاً وان يرقى محلاً في مضمار الجهد العام ، وفي تلك « اللحظة البسيكولوجية » الملائمة تسرع اليه المنظمة العقائدية بفلسفة كاملة وبرامج معدة ونشرات ووعود وتقول له : هذا هو الدواء وتلك هي السبيل .

وقد يتردد الشاب اول الأمر ثم لا يلبث ان يقع

صريعاً لتلك المدفعية الفكرية الهائلة ويخرج من حالة التردد والقلق . سمعت اكثر من شاب يقول بعد انتمائه لهـــذه المنظمة او تلك : « اني وجدت الآن راحة البال فانا لا أطيل التفكير ولا أتألم وانما أطيع ما يصدر اليّ من امر. »
وكثيرون هم الذين يفرون من حرية الفكر الى أمن الطاعة والنظام .

ولست بمستطيع ان أعدد الدعوات المختلفة التي اجتاحت دنيا الشباب في السنوات الاخيرة واخـــذت عليهم كل سبيل . بعض هذه الدعوات يأتي من الغرب وبعضها يخرج من الشرق ، وبعضها مزيج عجيب من هذا وذاك . وهي كلها دعـــوات جريئة ملحة مغرية لاأتناولها بالتفصيل وانما اسوق ملاحظات سريعة حولها :

١ ـ واول ما نلاحظ أن هذه الدعـــوات تهتم بالعلم والتكنيك والعمل الخارجي المنظم أكثر مما تهتم بالفضيلة وتكوين النفس . انها بارعة في صنع الآلة ، مقصرة في غير ذلك .

٢ ـ ونلاحظ ، ثانياً ، ان هذه الدعوات تؤكد على الحقوق دون الواجبات ، وهذه آفة الزمن الاخير . من الثـــورة الفرنسية في القرن الثامن عشر الى لجنة حقوق الانسان في هيئة الامم ونحن لا نسمع غير حديث الحقوق والمصالح ، وقلما يرتفع صوت نبيل يذكر بالواجبات لأن حـــديث الواجبات ثقيل على السمع ، يحمل صاحبه عبئاً

ويكلفه جهداً وعسراً .

ومن عادة رجال الغوغاء ان يخلقوا بعصا سحرية جنات الفردوس أمام العامة والدهماء . اما المصلحون الكبار والانبياء والمرسلون الذين غيروا وجه التاريخ فلم يتحدثوا عن الحقوق والمصلحة والفائدة والامتيازات ، وانما تحدثوا عن الواجب والحب والتضحية والفداء ، « والفرق بين رجال الحق ورجال الواجب - كما يقول مازيني -- هو ان رجال الحقوق متى حصلوا على حقوقهم الفردية فانهم يتوقفون عن العمل لأن الدافع الاساسي ينعدم ، اما جهود رجال الواجب فلا تنتهي الا بانتهاء الحياة . »

٣ - ونلاحظ ، ثالثاً ، ان الدعوات الحديثة ، من عالمية ومحلية ، تستهدف المادة قبل المعنى ، فهي تطلب تحسين العيش ورفع الاجور ، وتلح على اهمية الخبز والمتاع ، وتتحدث باحصاء وارقام ، واحسب ان هذه الامور لا بد منها ، لكني استنكر ان تصبح الغاية الاولى في الحياة مادة واقتصاداً ، وأعتقد انه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

عندما يتخلى الانسان عن حاجات الروح ومطامح الفكر ، فماذا يبقى من الانسان ؟ الا يغدو حيواناً اقتصادياً هيناً ، كما اراد له كارل ماركس ان يكون ؟

والشعب ، حين يزهد الشعب بالمثل المعنوية ، ما الفرق بينه وبين القطيع ؟

كان الشعب الروماني عظيماً صاحب سيادة وسلطان ، وفي يوم من الايام ألقى الشعب العظيم همومه الى الريح وتقلص طموحه وحصر همه في مطلبين : الخبز والالعاب Panem et Circenses ويومذاك هبط الشعب العظيم واخذت الامبراطورية الرومانية بالانهيار ..

قد يقول قائل : الم تسمع بدعوات دينية وحركات ؟ اقول بلى ، في الشرق والغرب حركات دينية منظمة ، واسعة الانتشار . لكني لا اكاد اجد فيها نفحة من نفحات الروح ولو تحدثت بلغة الانبياء . والتيار الاقوى في العالم وفي البلاد هو تيار الالحاد ، وقد سمعت الكثير من الشباب يرددون قول نيتشه : « ألم تسمع في الغابة ان الله قد مات » .

٤ - ونلاحظ ، رابعاً ، ان هذه الدعوات لا تقتصر على نهج الحياة وانما تتناول كيان الانسان وشخصيته القومية فتقول له : « انت سوري ، انت عربي ، او انت مجهول النسب ، انت مسلم ، انت انسان ، انت كائن اقتصادي ، انت اقطاعي ، او رأسمالي ، او عامل او صعلوك » .

اضف الى هذا كله تلك الدعوات السمجة ، المبتذلة ، المعادة كل صباح وكل مساء : صوت اميركا ، راديو موسكو ، راديو باريس ، محطة الاذاعة البريطانية ، ولا انسى محطة الشرق الادنى .

أفبعد هذا كله تعجبون من حيرة الشباب وتخبطهم وضلالهم البعيد ؟

والواقع ان الامه بامرها في حيرة واضطراب . وحيرتنا ابلغ من حيرة سائر الامم لان ابناء الحضارة القديمة المتصلة لا يؤخذون بسهولة ، والمجتمع القوي المتماسك يصمد لهزات الفكر وموجات العاطفة وجموح الغرائز . وفي الامم الناضجة الواعية مؤسسات تعدل من اندفاع التيارات الطارئة وتنصح وتهدي وتشير . ولكن من عندنا يصحح ويعدل ويشير ويهدي ؟ في خضم الدعوات وفوضى المذاهب والآراء ما صنعت المعارف السورية ، وما يصنع المفكرون وزعماء الرأي وقادة العمل ؟؟؟

المعارف: اما المعارف فتزيد من هذه الفوضى وتشارك فيها ، وحسبي ان اذكر ان تلك الدعوات التي اشرت اليها كانت ممثلة في الاساتذة والمعلمين ، وان منظمات عديدة اعتمدت على المعلمين في حشد الطلاب . وكنت تجد في المدرسة الواحدة معلماً شيوعياً ، الى جواره معلم بعثي ، لهما زميل قومي سوري ، ومعهم اخ مسلم . وكنا نتساءل : هل تعمل المعارف السورية على نشر الفكرة الشيوعية ، ام تتبنى القومية السورية ، ام تكون على مذهب الاخوان المسلمين ؟ هل للدولة توجيه ؟

ان منشيء المدارس العامة في انكلترا كان يقول : اريد ان اعد جانتلمان ، مؤمناً ، متنوراً . ومضت

المدارس العامة في اعداد طبقة ممتازة من المؤمنين المتنورين .
فمن هو السوري الذي تعمل المعارف على اخراجه ؟ طرحت هذا السؤال على عدد من كبار رجال المعارف ومن صغارهم فلم اظفر بجواب . ان المعارف تكتفي بنشر العلم او المعلومات ولا تهتم بصنع الشخصية على مثال تراه . لذلك لم يحمل المعلم السوري ، او لم تحمله المعارف ، رسالة غير تيسير العلم اليسير لاكبر عدد ممكن من الناس .

ارجو الا يفهم مما تقدم اني لا اقدر الدور الذي تلعبه الاحزاب في النظام النيابي الحرّ ، كما ارجو الا يفهم اني احرم على المعلم ان يفكر ويجتهد لنفسه ويعتنق الفكرة السياسية التي يشاء ، ولكن لا يجوز للمعلم وهو عامل الدولة وامينها على ابنائها وحارس الحضارة والقيم ان يستغل مركزه للتأثير على الناشئين . واجب المعلم ان يعوّد الطالب على التفكير الطليق وان يهديه الى المثل الاخلاقية العليا ويتركه وشأنه بعد ذلك ، يختار ما شاء من مذاهب في السياسة والاجتماع .

المفكرون : أفي سوريا ادباء وشعراء وخطباء ومفكرون يقومون بحق الفكر والفن والادب ؟ ان اكثر كتابنا صحفيون ليس لما يكتبون قيمة في ميزان القيم ، وليس لهم سلطان ادبي يجعلهم مسموعي الكلمة محترمي الرأي . واكثر ادبائنا يفهمون الادب على انه تركيب الفاظ وصناعة انشاء .

وشعراؤنا ؟ صادفت بالامس شاعراً في دمشق ، فتى الشباب والعذارى وشهد له بالالمعية شعراء لبنان واخرجت له ديواناً مطابع مصر . انه يستطيع ان يقول قصيدة كاملة في « المايوه الازرق » وفي « احمر الشفـــاه » ... هو شاعر موهوب ، ما في ذلك ريب ، لكن هذه المواضيع لا يمكن ان تجعل منه شاعراً عظيماً يغني لشعب عظيم .

واين اين المفكرون الذين يبحثون عن الحقائق ، ولهم الجرأة الكافية لاعلانها ؟

اتصدقون ، ايها السادة ، ان شهوراً عديـــدة تطوى وقد تمضي السنة والسنتان ولا يخرج في سوريا كتـاب ؟ وفي بيروت لا يمضي اسبوع لا يصدر معه كتاب من دار نشر واحدة ، وهناك عشرات الدور للنشر . ونزعم ان سوريا هي زعيمة الفكرة العربيـــة ومركز الاشعاع والانطلاق ؟

ومرت عاصفة فلسطين ولم تخلف في عـالم الفكر سوى رسالة كتبت على عجل ...

والغي دستور ، ووُضـع دستور ، وعُلـّق دستور ، ولم نسمع كلمة المفكرين في نظام الحكم وما يلائم طبائع العرب وحاجات الزمان .

وحدثت الاحداث الجسام فما حركت مفكــراً ولا اوحت بنظرية او رأي صريح .

فما بال المفكرين ، وما خطبهم !؟

لعل المفكرين في قيود من مطامعهم وفي حرص شديد على الامن والعافية . لان من اراد ان ينصب نفسه معلماً لقوم ومرشداً وهادياً ، عليه ان يترفع ويتطهر كما فعل سعدي الشيرازي حين تقدم للهداية والاصلاح :

« يا سعدي ، لقد تشجعت في القول
وما دام السيف بيدك فتول به الفتح ،
وقل ما تعرفه فمن الخير ان تقول الحق .
فلست مرتشياً ولا مرائياً .
ان الطمع قيد ، فاقطع بحكمتك هذا القيد .
واقض على الطمع وقل كل ما تريد . »

وهكذا استطاع سعدي ان يخاطب الملوك والامراء وان يفرض احترامه على الناس جميعاً .

قد يقول قائل : ولكن من يضمن حرية القول للمفكرين ؟ واجيب : ومتى كان المفكرون الكبار واصحاب الرسالات ينتظرون ان تهدى اليهم الحرية ليقولوا ؟ اذا وجد المفكر الاصيل فانه يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال .

اليونان بأسرها والانسانية جمعاء مدينة لرجل أعلن الحق الذي رآه وذهب الى السجن راضياً ومشى الى الموت رافع الرأس وضرب للاجيال أروع مثال في الوطنية والاخلاق .

الزعماء : التفريق بين المعلم والمفكر والزعيم اقتضاه

مجرد عرض الفكرة ، واني أعتبر الزعيم الحقيقي معلما لقومه وهادياً ، وإني حين افكر في الاصلاح والانقاذ أتمثل المنقذ في صورة معلم كما كان مازيني معلماً لقومه في القرن الماضي وكما كان غاندي قبيل انتصاف هذا القرن .

كم اتمنى ان أرى شباب سوريا يجتمعون في حلقات حول مفكر كبير نبيل كما اجتمع شباب آثينا حول سقراط ، وشباب اميركا حول امرسن ، وشباب المانيا حول « فيختة » Fichte و « جوته » Goethe .

في قصة (تانكريد) لدزرائيلي يقول اللورد تانكريد للأمير فخر الدين اللبناني : « اذا اردت أن تحرر بلادك وتكون امة من هذه الشعوب فلا تحسب الامر يتم بارسال السفراء الى لندن وباريس ، فمن يدري ما يكون مصير المدينتين ? انما ينبغي أن تصنع مثل محمد وموسى . ان العالم لم يغلب قط بالكيد والدهاء ، وإنما غلب العالم بالايمان واني أراك لا تؤمن بشيء . »

ويجيب فخر الدين : « الايمان ، آه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشيء ويكتسح الدنيا ... » فيعود تانكريد الى القول : « انظر يا فتى ، اني لا اجد ما يغري في اكتساح الدنيا من اجل بيت شهاب . ان البيت المالك يزول كسائر الاشياء ، وانما يجب ان يغلب المرء العالم لينصر فكرة ، ان الفكرة وحدها تبقى الى الابد ، ولكن اي فكرة ? هنا الفلسفة وكل الحكمة . »

ونحن نتساءل : اي اهداف واي مثل ؟

اني احب كثيراً تلك الحكاية او الاسطورة التي يرويها افلاطون ، وهي وان كانت من خيال الشاعر العظيم الا انها لا تخلو من عنصر حقيقة .

يزعم افلاطون ان النفس قبل ان تهبط الى هـذا العالم تطوف السماء في صحبة الآلهة وترى المثـــل او الفكر الخالدة - ترى الشجاعة الكاملة والعدالة التامة والجمال المطلق وكل الفضائل والكمالات - والنفس بعد الولادة حين ترى وجهاً جميلاً او تمر بروض انيق او تصغي الى شاعر عظيم ، تهفو وتصبو وتطرب ، لأنها تذكر ما رأت في السماء اثناء الطواف مع الآلهة .

ويزعم افلاطون ان التوفيق في الحياة يكون بقدر ما يحفظ الانسان ذكرى تلك الرؤيا الجليلة في السماء .

وهكذا ترون ، ايها السادة ، اني رجعي ارجع الى سقراط وافلاطون والقدماء ولا آتيكم بجديد ، وانظر بتحفظ الى دعوات الاصلاح السياسي والتجديد الاقتصادي وتوزيـــع الحقوق وتحسين العيش .

مشكلتنا اعمق بكثير من السياسة والاقتصاد ، هي مشكلة امة فقدت مثلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مثلاً اخرى تتفق عليها . واني اعتقد ان العمـل الجديد يجب ان يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء .

نحتاج الى من يقودنا ثانية الى المثل الخالدة ، الى الحق

لذات الحق ، الى الخير لأنه خير ، الى الجمال لوجه الله ، الى الحرية مهما تكن العقبات ، الى الشجاعة ، الى الحب ، الى كل فضيلة وكل كمال .

ولا يكفي ان نرشد الناشئين الى الفكر المجردة وانما ينبغي ان نضع امامهم امثلة عالية من الأدب والتاريخ والحياة ، وان نطلعهم على افضل ما كان وما كتب وما صنع ومـــا خطر على بال . ولنغرس تلك الصور في صدورهم كمقاييس يهتدون بها ويرجعون اليها في الحـكم على الاشياء .

ان المؤدب اذا اراد ان يعد شاباً موهوباً ليكون فناناً او صاحب ذوق سليم يضع بين يديه اروع ما رسمت ريشة فنان .

واذا اراد ان يغذي شاعرية شاعر يطلعه على ما انتج اعظم شعراء العالم من هومير الى دانتي وشكسبير ، لأن صحبة العبقريين تعودنا على جو المرتفعات وتعطينا النغـــم والنمط والاسلوب الذي ينبغي ان نجري عليه .

وهكذا اذا اردنا ان يصبح الناشيء مواطناً فاضـــلاً فلنضع امامه انبل الامثلة عن المواطن الآثيني في القـديم والمواطن السويدي او السويسري في هذا الزمان .

واذا اردنا مصلحاً ومنشئاً ورجل دولة فيجب ان ندله على نماذج فذة من الدول الفاضلة في التاريخ : آثينا على عهد بركليس ، وروما يوم كان كاتو وشيشرون احراراً في

مجلس الشيوخ ، اميركا على عهد لنكولن وواشنطون .

الرؤى الجليلة والمثل العالية هي الزاد الضروري لرحلة الحياة ، ويحصل الناشيء على ذلك الزاد في صحبة افضل الاشياء في العالم : اجمل الصور ، احسن البناء ، افضل النظم ، انبل الاشخاص ، وارقى الدول .

ايها السادة : لقد تحدثت طويلاً عن الاهداف والمثل ولم اذكر بعد مصدر المثل جميعاً ومنبع الفكر ومبعث النور والحكمة وكل خير وكل جمال .

ان دعوتي ، ايها السادة ، ليست اقل ولا اكثر من العودة الى الله .

ولله المثل الاعلى ، كما جاء في القرآن الكريم ، وله المثل الاعلى في السماوات والارض * .

---

* محاضرة القيت في دار الكتب الوطنية بحلب في ١٦ ايار ١٩٥٢

مشكلة الحكم على ضوء التاريخ العربي

•

مشكلة الحكم مشكلة ازلية خالدة ابتدأت منذ ابتداء الاجتماع البشري ولا احسبها تنتهي الا بانتهاء حياة البشر على الارض .

ولقد شغل بها سقراط والقدماء ، وشغل بها المحدثون ، وما زال الفلاسفة والعلماء واصحاب المذاهب يبحثون فيها ويختلفون . الا ان كثرتهم مجمعة على ان الحكم ضروري وانه لا بد للناس من دولة وسلطان . يقول ارسطو : « الانسان حيوان سياسي » . ويقول ابن خلدون : « الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع ... ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر ... وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم » . ما شذ عن ذلك الا قلة من المفكرين امثال Bakunin و Kropotkin من اصحاب المذهب

اللاحكومي او « الفوضوي » ، مع العلم ان هؤلاء لا يقصدون إلى الفوضى في الاجتماع وانما يتوخون النظام الاجتماعي العادل بدون حكم وازع وسلطان قاهر . وقريب منهم موقف Karl Marx حين يتطلع الى يوم تلغى فيه الدولة ، لان الدولة في نظره وسيلة من وسائل الرأسمالية وآلة في حرب الطبقات ولن تكون دولة في مجتمع ليس فيه طبقات .

اما الفقهاء والمتكلمون فيذهبون الى وجوب نصب الامام . طائفة تقول : « قد وجب نصب الامام شرعاً » وطائفة اخرى ترى ان « قد وجب ذلك بالعقل » ، لا يخالفهم الا فريق من المعتزلة وبعض الخوارج ، اكتفى باقتباس « الاصم » منهم : « اذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ احكام الله لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه » .

وعندنا ان الطبيعة البشرية ما دامت كما تعلمون فهي في حاجة ماسة الى حكم وازع وسلطان . وما اظن ان الطبيعة البشرية ستتغير تغيراً اساسياً ، فهي في الستة آلاف سنة الاخيرة التي تعاقبت فيها المدنيات لم تتغير تغيراً اساسياً ذا خطر . يقول في ذلك Jacques Pirenne : « اذا كان الانسان قد اصبح بالعلم سيد العالم وان استطاع ان يغير كل ما حوله فان شخصه في غرائزه العميقة لم يتغير . »[1]
ويؤيده Arnold Toynbee : « في الشخصية الانسانية استعداد

(1) Jacques Pirenne , Les grands courants de l'histoire universelle .

كامن للخير والشر . وما لم يحدث انقلاب في الطبيعة البشرية فان امكانية الخير والشر في كل مجتمع على ظهر الارض ستولد مع كل طفل جديد وسيجد القيصر عملاً له. »[1]

والقيصر عبارة عن مؤسسات الدولة التي تعتمد في التحليل النهائي على القوة .

وسواء اكانت الدولة مؤسسة طبيعية فاضلة كما رأى فلاسفة اليونان ، ام كانت الحكومة شراً لا بد منه كما رأى المفكرون الثائرون في القرن الثامن عشر ، فنحن مضطرون الى البحث عن نوع الحكم الذي يلائم طبائع البشر .

كيف يساس الناس ؟ هـذه هي مشكلة الانسانية الكبرى .

هل هناك لون من الحكم يصلح لجميع الناس ام ان امر الحكم نسبي ينظر فيه الى الزمان والمكان والظروف واخلاق الامم ؟

واذا كان الامر كذلك فكيف يساس العرب ؟

وبديهي اني لا أستطيع ان أعطي جواباً بسيطاً قاطعاً ، وانما اقترح عليكم الرجوع الى التاريخ العربي علنا نجد اضواء تلقى على مشكلة الحكم وتنير بين يدينا الطريق .

فقد عرف العرب في زماننا هذا حكومة الفرد في اليمن والحجاز ، والنظام الملكي النيابي في مصر والعراق والاردن وليبيا ، والحكم الجمهوري النيابي في سوريا

---

(١) Arnold Toynbee , Civilization on Trial .

ولبنان ، ولم يطمئنوا بعد الى شكل من اشكال الحكم .
وان اكثر الدول العربية المستقلة والتي تستكمل استقلالها اصطنعت النظام النيابي وتعثرت بـه لانها اخذت الآلة والاداة ولم تأخذ الفلسفة والافكار والآداب التي تحرك تلك الآلة وتدفع فيها الحياة . ثم انا لم نمهد للنظام النيابي تمهيداً طبيعياً ولم نحاول ان نربطه بشيء من تاريخنا ولا وصلناه بنظام من الشورى قديم عرفه العرب في صدر الاسلام . وعندي انه يجب ان يزداد اهتمامنا بتلك الحقبة الفذة من التاريخ – اعني حكم الخلفاء الراشدين . وهناك طريقتان لدراستها : اولاً ، يمكن ان ندرسها فلسفياً من خلال نظريات الاصوليين والفقهاء واهل الكلام ؛ ويمكن ، ثانياً ، ان ندرسها تاريخياً بالرجوع الى وقائع التاريخ ثم استخراج نظرية ذلك النظام .

ولا بأس من الالمام بنظريات الفقهاء والمتكلمين ولكن لنذكر دائماً :

١) ان العلماء في الدولة العباسية تناولوا مسألة الخلافة وادخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية . اي انهم عالجوا الموضوع على صعيد ديني فقهي ، ونحن ننظر الى الموضوع من زاوية العلم السياسي المدني .

٢) لم يميز اولئك العلماء تمييزاً دقيقاً اساسياً بين الخلافة على عهد ابي بكر وعمر وبين خلافة معاوية او خلافة ابي العباس . فقالوا : تكون الخلافة اما بالاختيار ،

او بالعهد ، او بالقـــوة والغلبة . ونظموا ذلك كله في نظرية سياسية واحدة كأن لا فرق في السياسة والاخلاق ان يستمد الخليفة سلطانـه من بيعة اولى الامر او بعهد من خليفة سابق او بحد السيف .

٣) ولقد كتبوا في ظـل الدولة العباسية ، أي في ظل حكم مطلق ، فلم يكونوا احراراً في مناقشة نظام الحكم ووضع فلسفة له والتماس النظام الامثل ، وانما ارادوا أن يبرروا الواقع ويحثوا على طاعة السلطان مهما كان السلطان . ولقد اسرفوا على انفسهم في ذلك فقالت طائفة منهم تنعقد الامامة اذا بايع خمسة او ستة من اهـل الحل والعقد ، وقالت طائفة من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكما وشاهـــدين ، وقالت طائفة تنعقد بواحد لأن العباس قال لعلي : « امدد يدك ابايعك فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان » . وقالوا بوجوب طاعة الامام وان الخروج على الائمة وقتالهم حرام ، وان الامام لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ، واستشهدوا بالآية : « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم » ، ونسوا أو تناسوا اية اخرى : « لا ينال عهدي الظالمين . »

هذا عند السنة اما عند الشيعة فلا يسأل الامام عمـــا يفعل . اما الخوارج فمـــن اصولهم الخروج على السلطان الجائر ولكنهم قلة قليلة في الاسلام ، وهم انما يستحلون

عزل الامام او قتله « اذا قضت الضرورة بذلك » — على حد تعبير المسعودي .

٤) لذلك كانت العلوم السياسية ضعيفة عند العرب . ولولا الصفحات الاولى من الاحكام السلطانية للماوردي و « المدينة الفاضلة » للفارابي ، ولولا خطرات وآراء ساقها بعض الاصوليين والفقهاء واهل الكلام ، لقلت ان الفلسفة السياسية كالمعدومة عند العرب . ولعل مقدمة ابن خلدون هي الكتاب الوحيد ذو القيمة العلمية الباقية .

فلنخترق اذن تلك النظريات والحجب ولنرقَ الى تلك التجربة الفذة نفسها ، الى وقائع الحكومة في صدر الاسلام .

لماذا اقتصر على دراسة نظام الحكم في ذلك الصدر من الاسلام ؟ ما بال الجاهلية ، والحكم على عهد الرسول ، وملك الامويين وخلافة بني العباس ؟

أ — الجاهلية : امـا حكومة الجاهلية فقد كانت حكومة قبلية او « حكومة المشايخ » . يقول في وصفها الاستاذ فيليب حتي : « الشيخ هو اكبر فرد في القبيلة تتجلى زعامته في رأيه الحكيم وكرمه وشجاعته . وتقدم السن والصفات الشخصية تقرر اختياره . وليس للشيخ السلطة المطلقة في القضاء والحرب وغير ذلك من المسائل العامة وانما يجب ان يستشير مجلس القبيلة المؤلف من رؤساء البيوتات فيها . العربي بصورة عامة والبدوي على الاخص ديمقراطي بالطبع وانه يلقى شيخه على صعيد واحد لان المجتمع الذي

يعيش فيه يساوي بين الاشياء . ولقب ملك لم يستعمله العرب الا بالاشارة الى حكام الاعاجم والى ملوك غسان والحيرة ، وملوك كنده يشكلون الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة . لكن العربي ارستقراطي ايضاً ، ينظر الى نفسه على انه اكتمال الخليقة ، والامة العربية عنده « افخر الامم » . يباهي العربي بدمه وبلاغته وشعره وسيفه وخيله وقبل كل شيء بنسبه . وهو مولع بالانساب وكثيراً ما يرقى بجدوده الى آدم وما من شعب آخر غير العرب رفع النسب الى درجة العلم « علم الانساب » .

اما في مكة فقد كان رؤساء القبائل يجتمعون في دار الندوة ويفصلون في الهام من الامور ، وكانت المصالح العامة موزعة فيما بينهم ، فاللواء لابي سفيان والسقاية للعباس والسفارة لعمر بن الخطاب والاشناق لابي بكر . وهي حكومة قبلية بدائية تسير على العرف والعادة ، لا سلطة دائمة فعالة تشرع القوانين وتملك القوة لتنفيذها .

ب ـ الحكم النبوي : اما الحكم النبوي فهو خارج نطاق هذا البحث لان الرسول ترسله السماء ويستمد سلطانه من فوق .

ج ـ الحكم الاموي والعباسي كان « ملكاً عضوضاً » ، والامويون وان حافظوا على البيعة شكلاً فقد اخذوها كرهاً . « وانما سيئة الامويين التي لا تغتفر ـ على رأي رشيد رضا ـ ما سنوه في قاعدة حكومة الاسلام ، فهي

انتخابية شورى في اولي الاختيار من اهل الحل وقد نسخوها بالقاعدة : القوة تغلب الحق » . والخلافة العباسية اوجدها الفرس الذين يقولون بنظرية الحق الملكي الالهي ، واصبح الخليفة العباسي يعتقد انه يحكم بتفويض من الله لا من اهل الحل والعقد ، او من الشعب كما يتضح من قول ابي جعفر المنصور : « انما انا سلطان الله في ارضه » .

لنقتصر اذن على الحقبة الممتدة بين وفاة الرسول الى بيعة عثمان ، وان شئتم الى الحرب الاهلية التي ابتدأت بمقتل عثمان وانتهت بسيطرة معاوية . واني اضيق دائرة البحث لقصر الوقت اولاً ، ولأن الحكم الشوري الانتخابي العربي الخالص كان على عهد ابي بكر وعمر قبل انتشار الفتوح واتساع رقعة الدولة ودخول الاعاجم وتشويه المؤسسات العربية بنظريات الفرس ومزاجهم الخاص . ولأن ذلك الحكم ، ثالثاً ، كان المثل الاعلى ، فما احسب ان امة من الامم عرفت حكومة انبل او اعدل من حكومة ابي بكر وعمر ، وما احسب ان حكومة عرفت رعية اصلح واطوع من رعية ابي بكر وعمر ..

* * *

عندما قبض الرسول وجد المسلمون انفسهم امام مشكلة خطيرة ووضع جديد ليس له سابقة . كان الرسول المرجع الاعلى في شؤون الدين والدنيا جميعاً وكانت سلطته قائمة على عقيدة الناس ان أحكامه تصدر عن وحي الله وأمره ، فلما قبض انقطع خبر السماء وتطلع المسلمون

فلم يجدوا في القرآن نصا صريحاً علـى شكل الحكم ولا نظاماً مقرراً لاختيار الخليفة ، ونظروا في السنة فلم يجدوا شيئاً من ذلك .

والواقع ان القرآن الكريم جاء بقواعد كلية عامة : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ، (شاورهم في الامر) ، (وأمرهم شورى بينهم) ، ولم يضع نظاماً مفصلاً . فمن هم أولو الأمر ؟ وكيف يتعينون ؟ ومن الذي يستشير بعد الرسول ومن له ان يشير ؟ يقول الخضري : « لم يرد في الكتاب امر صريح بشكل الانتخاب الا تلك القواعد العامة ، وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة كأن الشريعة ارادت ان تكل هذا الامر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده واوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام . »

والنبي لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ولم يستخلف على المسلمين احداً من اصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب . وربما كان لله في ذلك حكمة . و « حكمته » ، على رأي هيكل ، « الا يظن الناس ان من استخلفه رسول الله قد استمد الامر على المسلمين من عند الله ، فأصبح خليفة الله » . وهكذا ترك الامر للسنن الطبيعية والتطور التاريخي والاجتهاد ، وترك الامر للمسلمين انفسهم يعالجونه بعبقريتهم الخاصة في حدود القواعد العامة التي

وضعها القرآن والسنة . وعندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول كان عليهم ان لا يؤلفوا حكومة فحسب وانما ان يضعوا دستوراً وقواعد لتأليف الحكومة . كان عليهم ان يقرروا قبل اختيار الخليفة فيمن تكون الخلافة ، ومن الذي يختار ، اي كان عليهم ان يلعبوا دور جمعية تأسيسية .

ويبدو ان الاجتماع حصل ارتجالاً ، عقده الانصار لمبايعة سعد بن عبادة سيد الخزرج فبلغ ذلك ابا بكر فأتاهم ومعه عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح ، وجرت مناقشة دستورية سياسية خطيرة تقررت فيها المبادىء الاولى لنظام الحكم . فلاختصر لكم تلك المناقشة مما رواه ابن هشام والطبري وابن الاثير وابن قتيبة :

سعد بن عبادة : يا معشر الانصار ، ان لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب . ان رسول الله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم الى عبادة الرحمن فما آمن به من قومه الا قليل ، والله ما كانوا يقدرون ان يمنعوا رسول الله ولا يدفعوا عن انفسهم حتى اراد الله لكم الفضيلة وساق اليكم الكرامة ودانت باسيافكم له العرب . وتوفاه الله وهو راض عنكم قرير العين فشدوا ايديكم بهذا الامر فانكم احق الناس به . فأجابوه جميعاً ان قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الامر .

ابو بكر : نحن المهاجرون اول الناس اسلاماً

واكرمهم احساباً وامسهم برسول الله رحما وانتم اخواننا في الاسلام وشركاؤنا في الدين ، نصرتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً . فنحن الامراء وانتم الوزراء . لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش . فــلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به فقد قال : « الائمة من قريش »

الانصار : والله مــا نحسدكم على خــير ساقه الله اليكم ، ولكننا نشفق مما بعد اليوم فلو جعلتم رجلاً منــا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا على انه اذا هلك اخترنا آخر من الانصار فاذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين ابدا مــا بقيت هذه الامة ، كان ذلك اجدر ان يعدل في امة محمد .

ابو بكر : ان الله تعالى بعث محمــدا رسولاً الى خلقه وشهيداً على امته ليعبدوا الله ويوحدوه فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم فخص الله تعــالى المهاجرين الاولين بتصديقه فهم اول من عبد الله في الارض واول من آمن بالله ورسوله وهم اولياؤه وعشيرته واحق الناس بالامر من بعده . وانتم يا معشر الانصار ، من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الاسلام ، رضيكم الله تعــالى انصاراً لدينه ولرسوله وجعل اليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الاولين احد عندنا بمنزلتكم ، فنحن الامراء وانتم الوزراء .

الحباب بن المنذر : يا معشر الانصار املكوا عليكم ايديكم فانمــا الناس في فيئكم وظلالكم ولن يجترىء

يجترىء على خلافكم . انتم اهل العز والثروة واولو العدد والنجدة وانتم اصحاب الدار والايمان من قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية الا في بلادكم ولا جمعت الصلاة الا في مساجدكم ولا دانت العرب للاسلام الا باسيافكم ، فانتم اعظم الناس نصيباً في هذا الامر ، وان ابى القوم فمنا امير ومنهم امير .

عمر : هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد . انه والله لا ترضى العرب ان تؤمركم ونبيها من غيركم . من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن اولياؤه وعشيرته ؟

الحباب بن المنذر : يا معشر الانصار ، لا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر فان ابوا عليكم ما سألتم فاجلوهم عن بلادكم وتولوا هذا الامر .

ابو عبيدة : يا معشر الانصار ، انتم اول من نصر وآوى فلا تكونوا اول من بدل وغير .

بشير بن سعد : (من سادات الخزرج لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد) : يا معشر الانصار ، ان محمداً رسول الله رجل من قريش ، وقومه احق بميراثه وتولي سلطانه . وايم الله الا يراني الله انازعهم هذا الامر ابداً فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

ثم قام ابو بكر ودعا الانصار الى الجماعة وقال : اني ناصح لكم في احد هذين . الرجلين ابي عبيدة بن الجراح او

عمر فبايعوا من شئتم منهما . فقال عمر : انت احق بهذا الامر واقدمنا صحبة لرسول الله وانت افضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغـــار وخليفته في الصلاة . ابسط يدك ابايعك . فبايعاه وبايعه بشير الانصاري فناداه الحباب ابن المنذر : ما اضطرك الى ما صنعت ؟ حسدت ابن عمك على الامارة . قال : لا والله ولكن كرهت ان انازع قوماً حقاً لهم . فلما رأت الاوس ما صنع بشير بن سعد وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض : لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك عليكم فضيلة ولا جعلوا لكم نصيباً فيها ابدا فقوموا فبايعوا ابا بكر ، فبايعوه .

ومما يسترعي الانتباه غياب فريق من اكابر المهاجرين ، فلم يشهد اجتماع السقيفة علي والعباس والزبـــير وعثمان . والذي يفهم من رواية ابن قتيبة ان بني هاشم اجتمعت عند بيعة الانصار الى علي بن ابي طالب ومعهم الزبـير ، واجتمعت بنو امية الى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة الى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، فكانوا في المسجد الشريف مجتمعين فلما اقبل عليهم ابو بكر وابو عبيدة قال لهم عمر : ما لي اراكم مجتمعين حلقاً شتى ؟ قوموا فبايعوا ابا بكر فقد بايعته الانصار . فقام عثمان بن عفان ومن معه من بـني اميه فبايعوه ، وقام سعد وعبد الرحمن بن عوف ومن معهما من بني زهرة فبايعوا . اما علي فيروى انه قال :

« انا احق بهذا الامر منكم . اخذتم هذا الامر من الانصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي وتأخذونه منا اهل البيت غصباً ، احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الانصار . نحن اولى برسول الله حياً وميتاً . »

وفي رواية الطبري انه لما بويع ابو بكر في السقيفة وكان الغد جلس ابو بكر على المنبر فقام عمر وقال : « ان الله قد جمع امركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين اذ هما في الغار فقوموا فبايعوا » ، فبايع الناس البيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم تكلم ابو بكر :

« اني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فأعينوني وان رأيتموني على باطل فسددوني ، اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . »

* * *

ملاحظات على اجتماع السقيفة وبيعة ابي بكر :

١ – نلاحظ اولاً ان الامر كان امراً مدنياً ، لم يذكر حق النبي لاحد في الخلافة ولم يجد المسلمون حرجاً في الاختلاف ، وجرى على لسانهم ذكر الامارة والامراء والوزارة والوزراء ، وتذاكروا القوة والسيف والعز والثروة والعدد والمنعة ودخلوا في مساومات وتسويات . يقول علي عبد الرازق في كتابه (الاسلام واصول الحكم) : « كان معروفاً للمسلمين يومئذ انهم انما يقدمون على اقامة حكومة

مدنية دنيوية لذلك استحلوا الخروج عليها والخلاف لهـــا ، وانهم انما يختلفون في امر من امور الدنيـا لا من امور الدين ، وانهم انما يتنازعون في شأن سياسي لا يمس دينهم ولا يزعزع ايمانهم . »

٢ - هنالك اتفـاق ضمني بين المجتمعين على ان الخلافة تكون بالشورى والاختيار والبيعة . وقد جرت المناظرة على ذلك الاساس وحاول كل فريق ان يقنـع كثرة القوم وينال تأييد اهل الرأي .

٣ - اختلف المجتمعون ، اولاً ، في اهل الامامة او من يحق له ان يرشح نفسه للخلافـة فرأى فريق تخصيصها بالقرابة القريبة من الرسول وكان ذلك رأي عـلي ومن شايعه . ويبدو ان رأي علي كان معروفاً عند المجتمعين فلم يحرصوا على حضوره وانما استبعدوا هذه الفكرة فما كانت قريش ترضى ان ينحصر هذا الحق في آل البيت الى آخر الدهر وان تصبح الخلافة ارثاً . ورأى فريق آخر اطلاقها للمهاجرين والانصار . وفريق ثالث رأى تخصيصها بقريش واستطاع ان يقنع الجمهور . لم يكن ذلك حلا ملكياً ولا حلاً ديمقراطياً وانما كان حلاً ارستوقراطيـاً اذ حصر الخلافة في فئة ممتازة من العرب .

٤ - واجتماع السقيفة سن الانتخاب مـن حيث هو ، ولكن مضت البيعة دون ان يتبين الناس اولئك الذين لهم

حق في انتخاب الخليفة : اهل الاختيار او اهل الحل والعقد .

٥ — ثم ان بيعة السقيفة كانت البيعة الخاصة ، تبعتها في المسجد بيعة اخرى على نطاق اوسع هي البيعة العامة او البيعة الكبرى .

٦ — ونلاحظ اخيراً ان الشورى لم تكن تامة وانما عجل عمر بالبيعة خوفاً من عاقبة طول امد الخلاف . وقال القائلون : « ان بيعة ابي بكر كانت فلتة » ، وسمع عمر هذا الكلام وقال : « قد كانت كذلك غير ان الله وقى شرها . »

تلك مبادىء اولى وسابقة قد تتحول مع الزمن الى نظام ثابت ومؤسسات واضحة الاعلام وسنن مرعية وتقاليد متبعة .

* * *

وسار ابو بكر سيرة فاضلة جميلة ما يقرب من سنتين فكان يعمل باحكام القرآن وسنة الرسول وكان يستشير اصحابه في الخطير والجليل من الامر . واشفق في مرضه الاخير من مصير المسلمين بعده ، ورأى ان يستخلف من يقوم بالامر مقامه ، وان يجمع كلمة المسلمين عليه فدعا عبد الرحمن ابن عوف وقال له : « اخبرني عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله هو والله افضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة . قال ابو بكر : ذلك لانه يراني رقيقاً ولو افضى الامر اليه لترك كثيراً مما

هو عليه . ودعا الصديق عثمان بن عفان وقال : اخبرني عن عمر . قال عثمان : اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله . وشاور سعيد بن يزيد واسيد بن حُضير وغيرهما من المهاجرين والانصار . واملى كتاب العهد لعمر وخشي مع ذلك ان يختلف الناس من بعده فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وقال يخاطبهم : « اترضون بمن استخلف عليكم ؟ فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة . واني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا . » قالوا : « سمعنا واطعنا . »

ورغم هذه الاستشارات التي قام بها ابو بكر ، ورغم انه كان موفقاً في اختياره عمر الى ابعد حدود التوفيق ، فان استخلافه لم يكن تعزيزاً لمبدأ الانتخاب الذي سن في اجتماع السقيفة ، وان الشورى تقلصت وضاقت دائرتها على يديه . ولقد انتقد فريق من اكابر الصحابة فعل ابي بكر . وروى المغيرة بن شعبة : اتى عمر آتٍ فقال : هل لك يا امير المؤمنين في نفر من اصحاب رسول الله يزعمون ان الذي فعل ابو بكر في نفسه وفيك لم يكن له ، وانه كان بغير مشورة ولا مؤامرة ، وقالوا : تعالوا نتعاهد ان لا نعود الى مثلها . فذهب عمر الى دار طلحة وقال للمجتمعين : انتم القائلون ما قلتم ؟ وقال لعلي : والله ما خرج هذا الامر الا من تحت يدك . قال علي : اتقِ ان تكون الذي نطيعك

فنفتنك . قال وتحب ان تكون هو ؟ قال : لا ولكننا نذكرك الذي نسيت - يذكره بالقاعدة الاساسية « وامرهم شورى بينهم » ، ولم يكن اختيار عمر شورى ، وان كان ابو بكر شاور بعض اكابر الصحابة فهو لم يشاور علياً ولا احداً من بني هاشم . وكان علي قد عتب على القوم حين بويع ابو بكر وقال لابي بكر : « والله ما نفسنا عليك ما ساق الله اليك من فضل وخير ، ولكنا كنا نرى ان لنا في هذا الامر شيئاً فاستبددت به دوننا . »

* * *

وسار عمر سيرة فاضلة في العشر السنين من حكمه الرشيد ، يشاور من في المدينة من اصحاب النبي فيما يلمّ من الخطوب كل يوم ويلقى عماله في موسم الحج ويسمع منهم في امر الرعية ويسمع من الرعية في امر العمال ويرد الامر في ذلك كله الى نصابه . فلما طعن اشار ابن عمر على ابيه ان يستخلف فقال عمر : ان الله عز وجل يحفظ دينه واني لئن لم استخلف فان رسول الله لم يستخلف وان استخلف فان ابا بكر قد استخلف . ويقول ابن عمر : « فوالله ما هو الا ان ذكر رسول الله وابا بكر فعلمت انه لم يكن ليعدل برسول الله احداً وانه غير مستخلف . »

وبلفتة من لفتات العبقرية انشأ عمر مجلس الشورى فقال لمن حوله : « عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال الرسول

انهم من اهل الجنة فليختاروا رجلاً منهم . ولما اصبح دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير فقال :

« اني نظرت فوجدتكم رؤساء النـــاس وقادتهم ولا يكون هـذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ... فاذا مت فتشاوروا ثلاثـة ايام ... ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم ، ويحضر عبدالله مشيراً ولا شيء له من الامر ، وطلحـة شريكم في الامر اذا حضر . »

وقـــال لصهيب : « صل بالنـاس ثلاثـــة ايام وادخل طلحة إن قدم واحضر عبدالله بن عمر ولا شيء له من الامر ، وقم على على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف ، وان اتفق اربعة فرضوا رجلاً منهم وابى اثنان فاضرب رأسيهما ، فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً آخر فحكموا عبدالله ابن عمر ، فان لم يرضوا بحكم عبدالله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عمـا اجتمع عليه الناس . »

وبعد موت عمر تنافس القوم وكثر بينهم الكلام فتقدم عبد الرحمن باقتراح : « ايكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم ؟ » فلم يجبه احد فقال : « انا انخلع منها » فقال عثمان « انا اول من رضي »، وقال القوم قد رضينا ، وعلي ساكت . فقال عبد الرحمن ما تقول يا ابا الحسن ؟

قال اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم . فقال اعطوني مواثيقكم على ان تكونوا معي على من بدل وغير وان ترضوا من اخترت لكم وعلي ميثاق الله الا اخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين ، فاخذ منهم ميثاقاً واعطاهم مثله . وخلا بعلي وقال : « أرأيت لو صرف هذا الامر عنك من كنت ترى من هؤلاء الرهط احق بالامر ؟ قال « عثمان » ، ثم خلا بعثمان والزبير وسعد . ويقول الرواة ان عبد الرحمن دار لياليه يلقى اصحاب الرسول ومن في المدينة من امراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم حتى اذا استكمل الاجل اجتمعوا في المسجد وجرت مناقشة حادة بين امية وهاشم ، فتدخل عبد الرحمن تدخلاً حاسماً ودعا علياً فقال : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » . قال علي : « ارجو ان افعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي » . ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال عثمان « نعم » فبايعه .

١ - والملاحظ ان نظام الشورى الذي وضعه عمر على عجل هو استئناف لمبدأ الانتخاب الذي عمل به في اجتماع السقيفة . وقد اصبحت الشورى الآن مؤسسة لها مجلس مؤلف من سبعة اعضاء ، كل منهم مرشح للخلافة وكل منهم ينتخب ما عدا عبد الله بن عمر له صوت وليس له من الامر شيء ، وابو عبيدة صاحب الصوت المرجح

اي انه مرشح ليكون رئيساً وقد لعب دور الرئيس فعلًا وخلع نفسه وأدار عملية الانتخاب .

٢ – ثم ان بيعة السقيفة كانت قد سنت الانتخاب ولكن لم تبين الناخبين او اهل الحل والعقد او اهل الاختيار ، اما عمر فقد جعل اهل الاختيار في مجلس مؤلف من سبعة اعضاء .

٣ – وتوضحت البيعة واتخذت شكل العقد بين الامام والرعية . عقد يلزم الطرفين . فالمبايع يعاهد اميره على الطاعة والامير يتعهد ان يلزم كتاب الله وسنة الرسول وفعل الشيخين . واتضح معنى البيعة في اذهان الناس كما لم يتضح من قبل ، فالخليفة يستمد سلطانه من بيعة اهل الحل والعقد ورضا عامة الناس .

٤ – وخرجت من المسلمين ثلاث فئات :

أ : اصحاب الشورى او اهل الحل والعقد .

ب : اهل الرأي وهم بقية الصحابة وامراء الاجناد واشراف الناس .

ج : عامة الناس ، لا يؤخذ رأيها وانما عليها ان تبايع وتسمع وتطيع .

***

ومع ان نظام الشورى والانتخاب تقدم خطوات على يدي عمر وعبد الرحمن بن عوف الا انه لم يكتمل ولم يتخذ شكلًا نهائياً . ولو اتيح للعرب في صدر الاسلام السلم والحياة المطمئنة الهادئة لكان من الممكن

ان تكتمل الشورى وتنتظم البيعة ويتسع مجلس الشورى ويصبح هيئة دائمة يتجدد اعضاؤها ويكـــثرون . ولكن لننظر في هذا النظام كما هو ، ما لونه وما نوعه وما هي نواحي القـــوة والضعف فيه ؟ اكان نظاماً ملكياً ام ارستوقراطياً ام ديمقراطياً ام ثيوقراطياً ؟ اني لا اميـل الى التعميمات والاجمال والحياة معقدة وطرق الحكم مركبة ومن العسير جداً ان نلخص نظاماً بكلمـة او اصطلاح .

١) لم يكن ذلك النظام ملكياً ولكن يمكن ان يجد فيــه الباحث عنصراً ملكياً لان السلطة مركزة في شخص الخليفة .

٢) وليس نظاما ثيوقراطياً رغم ان العنصر الثيوقراطي بارز فيه فهي حكومة قوم الرسول واصحابه وهم ملزمون بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله .

٣) ولا نستطيع ان نزعم انـه كان نظاماً ديمقراطياً وانما كانت هناك عناصر ديمقراطية لا شك فيها : المساواة بين المسلمين وحرية النقد ومبدأ الشورى والبيعة .

٤) اكان نظاماً ارستوقراطياً ؟ لعل هذا ابرز عنصر في ذلك النظام . فاصحاب الشورى واهل الاختيار واهل الامامة هم قلة ممتازة من الناس . هذه القلة هي التي تقوم بالبيعة الخاصة ،اما البيعة العامة فليست انتخاباً وانمـــا هي الموافقة على الامر الواقع والتسليم به ، هي « متابعة العامة لرؤسائهم وسادتهم » . ومن هم اهل الحل والعقد ؟ إن

الذين حلوا وعقدا وتشاوروا وناظروا وبايعوا في السقيفة سادة الانصار وزعماء المهاجرين ، هم بتعبير الماوردي « اعيان العصر » . والذين عينوا في مجلس الشورى واختاروا الخليفة الثالث هم « رؤساء الناس وقادتهم » ، هم فئة مختارة من المسلمين .

هذه الارستوقراطية قامت ، اولاً ، على النسب القرشي وقد اجمعت الصحابة على ذلك يوم السقيفة . ويرى الدكتور طه حسين انها كانت ارستقراطية « قد غُلط بها » . « اراد ابو بكر ان تكون الامامة في المهاجرين فحولت قريش ذلك فيما بعد الى منافعها وعصبيتها وخرجت بذلك عن اصل خطير من اصول الاسلام وهو المساواة بين المسلمين . » اما انها ارستقراطية فامر لا شك فيه ، ولكنها كانت مقصودة ولحكمة . وقد كان ابن خلدون اعمق من طه حسين حين رأى انه روعيت المصلحة في اشتراط النسب وكانت المصلحة تقضي اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة : « ذلك ان قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم واهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم . » وهؤلاء الذين رشحوا للخلافة وعينوا في مجلس الشورى لم يكونوا من قريش فحسب وانما كانوا من خاصة قريش ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية فوصله بالاسلام .

وقامت هذه الارستقراطية ، ثانياً ، على السبق الى الاسلام وحسن البلاء فيه . وكانت قد تكونت بالاسلام طبقة جديدة هي طبقة الصحابة ، فكان من الطبيعي ان يفضل بعضهم على بعض بسبقه الى الاسلام واخلاصه في الايمان وصدق جهاده واستكثاره من صحبة الرسول . فالمهاجرون مقدمون على الانصار ، والانصار مفضلون على من اسلم يوم الفتح وبعده ، وبين المهاجرين اهل بدر يؤلفون طبقة ممتازة فمن شهد منهم غير بدر من المشاهد مع الرسول فهم اشد امتيازاً ومن اثنى النبي عليهم وبشرهم بالجنة واعلن انه عنهم راض فهم خلاصة الامة وخيار المسلمين .

وقامت هذه الارستقراطية ، ثالثاً ، على الميزات الشخصية وعلى المواهب والفضائل التي تكسب لاصحابها احترام الناس وثقتهم . ولست في حاجة الى ان اقف طويلاً عند ميزات هؤلاء القوم فلولا فضائلهم واخلاقهم وادراكهم وعزمهم ما قربهم الرسول واعلن انه راض عنهم ولا قدمهم الصحابة وانقاد لهم الناس .

كان ذلك النظام اذن ارستقراطياً وكانت تلك الارستقراطية عربية ، جاهلية اسلامية معاً . وقد لخص ذلك النظام عبدالله بن عمر حين قال في وجه معاوية : « ان هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الابناء عن الآباء ، ولو كانت كذلك كنت القائم بها بعد ابي فوالله ما ادخلني مع الستة اصحاب الشورى

الا على ان الخلافة ليست شرطاً مشروطـــاً ، وانما هي في قريش خاصة لمن كان لها اهلاً ممن ارتضاه المسلمون لانفسهم ومن كان اتقى وارضى . »

هذا النظام الشوري الانتخابي الارستقراطي لم ينظمه نص في القرآن او السنة وانما هو « اجتهاد املته الاحداث » فهو نظام عفوي طبيعي انبثق عن حياة العرب في الصدر الاول من الاسلام فهو دستور غـــير مكتوب ، وهو لذلك دستور مرن نشأ نشأة طبيعية واخذ ينمو ويكتمل وكان خليقاً ان ينمو ويكتمل ويصبح مجموعة من الاصول المرعية والتقاليد والآداب لو سمحت بذلك الظروف .

ولقد ابتدأ النظام النيابي الديمقراطي في انكلترا عـــلى هذا النحو . كانت دائرة الحكم مقتصرة اول الامر على ارستقراطية النسب والاقطاع ثم توسعت فدخل فيها الطبقة الوسطى الغنية ثم اتسعت فدخلت الطبقة العاملة ودخـــل النساء في هذا القرن ... هـــذا التطور احتاج الى بضعة قرون وما كان ليتم لو لم تكن انكلترا جزيرة منعزلة عن القارة الاوروبية بعيدة عن مشاكل القارة وحروبها الدائمة . وهذا ما اتاح لها ان تستكمل نمو انظمتها في هدوء وعلى مهل كما تنمو السنديانة القديمة في هدأة الريف .

* * *

ما هي جهات الضعف في ذلك النظام ؟ ولماذا انهار ؟

١) لم تصبح الشورى وظيفة دائمة في الدولة ومؤسسة ثابتة من مؤسساتها ، فقد كان الخليفة يستشـــير ولم يكن

ملزماً برأي من بشــير . ولم تكن لمجلس الشورى وظائف دائمة مستمرة غير اختيار الخليفة .

٢) ومجلس الشورى هذا لم يبن عــلى اساس ثابت مضطرد متين ولم يكن قابلاً للتجديد والتوسع على الاسس القديمة . فاهل الشورى هم الذين توفى الرسول وهو عنهم راض وبقية المبشرين بالجنة ، وكان الزمن يعدو والصحابة تقل وكان لا بد ان يأتي يوم لا يبقى فيه عـلى الارض احد من مجلس الشورى ولا يبقى فيه صحابي ولا مهاجر .

٣) ولم يكن في ذلك النظام مجال للمعارضة الدستورية ، اعني المعارضة ضمن اطار الدولة . كان النقد اليسير مقبولاً ولكن الطاعة واجبة على كل حال وكان الاجماع ضرورياً في موضوع الخلافة . وتذكرون كيف اضطر عمر علياً اضطراراً الى بيعة ابي بكر ، وتذكرون ان الوحيد الذي رفض ان يبايـع ابا بكر (سعد بن عبادة) ذهب الى الشام وقتل في ظروف غامضة . ثم ان عمر اوصى صهيباً ان يقتل من لا ينزل عند رأي الجماعة .

وهذا كله يشير الى انهم لم يصطلحوا على قاعــدة الاكثرية التي تقضي بان ينتهي النقاش الى اقتراع وان تنزل الاقلية راضية عند رأي الاكثرين .

٤) كذلك لم يوضع نظام شرعي يقيد سلطة الخليفة ولم تقرر طرق واصول لمراقبة الخليفة ومحاسبته وعزله . ان قول عمر : « من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه » ،

وقول عثمان : « امرنا لأمركم تبع » ، ومن قبلها قول ابي بكر : « اطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » تحمل معاني النقد والمراقبة والحساب والعصيان والعزل ، بخلاف ما ذهب اليه الفقهاء من ان الخليفة لا ينعزل . لكن ذلك المبدأ لم يتحول الى مؤسسة ولم توضع له قواعد واصول ، لذلك حين استأثر عثمان لم يجد الناس عليه سبيلا . اراد الثائرون ان يخلع نفسه فابى قائلا : « ما كنت لاخلع قميصاً قمصنيه الله . »

والغريب في الامر ان عبد الرحمن بن عوف لم يلجأ الى دعوة مجلس الشورى حين طغى عثمان ، ولم يفكر في رد الامر الى اصحاب الشورى وانما قال لعلي : « ان شئت أخذت سيفك وأخذت سيفي فانه خالف ما اعطاني » . ولو رد الامر الى مجلس الشورى لكان من المحتمل ان يتقدم ذلك النظام خطوة اخرى نحو الاكتمال ، ولكان من الممكن تجنب الفتنة الكبرى التي نجمت عن مقتل عثمان ، ولحال دون انهيار ذلك النظام البديع .

واذن ليس من سبيل دستورية للتخلص من الخليفة اذا خالف ما اعطى ورأت الاكثرية عزله . لذلك اتخذت المعارضة شكلا عنيفاً وسلكت طريق الثورة للتخلص من عثمان . وانهار بتلك الفتنة ذلك النظام الشوري الانتخابي ودفنت تلك النواة الصالحة لنظام نيابي فاضل .

* * *

والآن ، بعد ثلاثة عشر قرناً ، اراني انظر الى

حكومة صدر الاسلام بحب عميق وحنين تاريخي بعيد وبشيء غير قليل من الاعجاب . ونحن لا يضيرنا ان نرجع الى تلك الحقبة ونلتمس العبر والدروس ، ونتعهد تلك النواة الكريمة للحكم ونجد لها التربة الصالحة في ارضنا ، لا سيما وانها تتلاقى مع ما انتهت اليه الانسانية المتمدنة الراقية من اصول الحكم .

ان الطريقة التي عولجت بها مشكلة الحكم في صدر الاسلام مدرسة في الحكم ، والنظام الذي توصل اليه اهل ذلك العصر مهما كانت علاته وثغراته ونواحي الضعف فيه فقد كان نظاماً فاضلاً قام على قواعد سليمة مستندة الى حقائق الاشياء وطبائع البشر وحاجات زمانهم وكل زمان. اما تلك القواعد الكلية فاراها تتلخص فيما يلي :

اولاً : قاعدة الشورى ، وهي اصل عظيم من اصول الحكم يمكن ان نستنتج منه ان الامة هي صاحبة السيادة ومصدر السلطات كما فعل محمد رشيد رضا حين قرر ان اهل الحل والعقد يمثلون الامة ، واصلاً مبدأ الشورى بنظريات القرن الثامن عشر . وحلقة الشورى يمكن ان تتسع مع انتشار العلم وحصول الوعي السياسي .

ثانياً : قاعدة الاختيار او الانتخاب ، فالخليفة او الحكومة لا تهبط من السماء ولكنها توجد باختيار اهل الحل والعقد .

ثالثاً : البيعة ، وهي عقد بين الحاكمين والمحكومين يتنازل فيه المبايعون عن بعض سلطانهم وحقوقهم الطبيعية للسلطة العامة (الدولة) كي تحفظ لهم بقوتها وضمانتها ما تبقى لهم من حقوق . ولست أجد فرقاً في الاساس بين فكرة البيعة ونظرية العقد الاجتماعي التي وضعت الاساس للديمقراطية الحديثة على يدي Locke في انكلترا و Rousseau فى فرنسا و Jefferson في الولايات المتحدة الاميركية .

رابعاً : مذهب اهل الحل والعقد ، وهو العنصر الارستقراطي في هذا التراث الديمقراطي الكريم . وقد دلت تجارب الامم على ان الحكم الديمقراطي لا يستقيم الا اذا وجد ضمن الديمقراطية فئة مختارة ممتازة معدة للقيادة والتوجيه . وان نجاح الديمقراطية في انكلترا ليعود بالدرجة الاولى الى طبقة ممتازة تخرجها المدارس العامة والجامعات القديمة ومدارس الاحزاب . والارستقراطية المقصودة ليست ارستقراطية النسب او الغنى وانما هي ارستقراطية المواهب والفضائل ، كما علم ارسطو .

هذه المبادىء والقواعد تحتاج الى من يؤلف بينها وبين نظرية الديمقراطية الحديثة ، وينسج منها ومن تجارب الانسانية واختبارات العرب نظاماً يلائم نفوس العرب وحاجاتهم في منتصف القرن العشرين . واعتقد أننا اذا احترمنا مبدأ الشورى وقاعدة الانتخاب ، ونظرنا الى الحكم على انه عقد

وعهد بين الحاكمين والمحكومين ، واخترنا للحل والعقد اولئك الذين ترشحهم مواهبهم وفضائلهم وحسن بلائهم لقيادة الناس ... ان فعلنا هذا او بعض هذا فانا نقترب من حقيقة الاشياء ونوفق الى الحكم الفاضل باذن الله * .

---

* محاضرة القيت في النادي العربي بدمشق في ١٢ ايار ١٩٥٣

موقف السياسي من الزعيم الثوري

•

تدفق على دور النشر في اوروبا واميركا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، سيل من المذكرات كتبها رجـال دولة وسفراء وقادة جيوش من المعسكرين الكبـيرين . بعض هذه المذكرات مادة اولية هامة لتدوين التاريخ ، وبعضها الآخر تبرير لما وقع وتأويل وتعليل . وفي هـذا الفيض المختلف قيمة واصالة ، تبرز مذكرات تشرشل من جانب الحلفاء ومذكرات فون بابن من جانب المانيا .

وتُقرأ مذكرات فون بابن لعدة اسباب :

اولاً ، لشخصية صاحبها الغريبة ، المثيرة للجدل – كما يقولون – والتي ينسب اليها اشد الكيد وابلـغ الدهاء ، والتي احيطت على مدى نصف قرن بالاحـاديث الغامضة والحوادث الغريبة والاساطير .

و'تقرأ ، ثانياً ، لان صاحب المذكرات تقلب في مناصب الدولة الكبرى في فترات حاسمة من التاريـخ ،

فكان مستشار المانيا (يقابل رئيس الوزراء في غربي اوروبا) قبيل هتلر ، ونائب المستشار في اول العهد النـــازي ، ووزيراً مفوضاً في النمسا قبل ان تضم النمسا الى المانيـا بقليل ، ثم سفيراً الى تركيا يشرف على « عملية شيشرون » * ويطلع على ادق اسرار الحلفاء في اثناء الحرب .

وتقرأ المذكرات ، ثالثاً ، لان فون بابن يمثل المانيا كما لا يمثلها « اديناور » مستشارها الحالي ، فهو يتكلم باسم المانيا التاريخية كمن له سلطان ، ويربط مصيرها بمصير اوروبا الغربية والعالم ، وهنا يلتقي ادهى دهاة الالمان مع اكبر الساسة الاوروبيين في ضرورة توحيد اوروبا لانقاذ المدنية الغربية من « الموجة البربرية الآتية من الشرق » .

واخيراً ، تقرأ هذه المذكرات البارعة لان صاحبها جابه مشاكل ومواقف يضطر الى مجابهة مثلها رجل الدولة في اي زمان واي مكان .

كانت جمهورية (وَيْمَر) قد بدأت تنهار اذ لم تستطع ديموقراطيتها ان تحل مشاكل المانيا بعد الحرب ، وفشلت احزاب الوسط في ضبط الامن ، وتفاقم خطر الشيوعيـة وبدا شبح الفوضى مخيفاً هائلاً . وتقدم هتلر الى الحكم ووراءه ما لا يقل عن اربعين بالمائة من اهل البـــلاد . وكان الرئيس الماريشال « هندنبرغ » شيخـــاً كبيراً لا

* شيشرون اسم مستعار اطلق على الجاسوس الالباني الذي كان خـادماً خاصاً لسفير انكلترا في انقرة وهو الذي صور وثائق سيده ونقلها الى الالمان.

يقوى على حمل الاعباء وحزم الامور .

في تلك الظروف ماذا كان على فون بابن ان يفعل ؟؟

واي موقف يتخذ السياسي الاصولي من الزعيم الثوري ؟؟

هل يلجأ الى المقاومة في السر او في العلن ؟

هل يؤثر الامن والعافية فيعتزل الحكم ويتبرأ من السياسة ويهمل الشأن العام ويسعى الى قمة عالية كما فعل ابو هريرة حين اشتدت الفتنة بين علي ومعاوية ؟؟

هل يتعاون مع الزعيم الثوري ويتخلى عن بعض معتقداته وآرائه ، ويتنكر لماضيه او طرف غير يسير من ماضيه ؟

حقاً ان طريق الواجب في الحياة العامة محفوفة بالشوك والغبار والشك والخطر ؛ ولكن عندما تحدث الاحداث الكبيرة في البلاد وتتبدل اسس الدولة وتنطلق الى الحكم قوى جديدة شديدة الاندفاع ، عندها يصبح طريق الواجب امام المواطن مظلماً شديد الظلام ، يريد سالكه ان يهتدي وهيهات ان يجد بين يديه الضياء .

وفون بابن الماني عريق لا شك في صدق وطنيته واخلاصه لبلاده .

وهو من طبقة في المانيا تعتقد ان لها شأناً في تصريف شؤون الدولة ولا ترى لنفسها ولا يرى فون بابن لنفسه ان يكون بعيداً عن الحكم حين تحدث الاحداث ويقرر

مصير البلاد .

وقد علم فون بابن بالاختبار المرير ان احزاب الوسط لا يمكن أن تجتمع على امر وان تنقذ المانيا من الفوضى والانحلال ، فاختار اهون الامرين واقل الخطرين وآثر التعاون مع هتلر والاشتراك في الحكم معتقداً ، اولاً ، ان الحزب النازي في الحكم سيروّض ويُصقل ويعتدل ويكتسب الشعور بالمسؤولية ؛ وآملاً ، ثانياً ، ان يتحول هتلر ، مع النهوض بالواجبات الرسمية ، من زعيم حزب الى رجل دولة .

ولعل امتع وانفع ما في الكتاب تلك الصفحات التي يحاول فيها فون بابن ان يبرر نهجه ذاك ويقف شاهداً امام التاريخ . وكأني به يقول ان الخيار في السياسة ليس بين الخير المطلق والشر المطلق وانما يُدفع الشر الكثير بالخير القليل . ولا يستطيع السياسي ان يغير الظروف المعطاة او يبدل المادة البشرية العاملة في السياسة ، وإنما عليه ان يفعل ضمن حدود الامكان ، مع تلك المادة وفي تلك الظروف . والسياسة بعد كل شيء هي « فن الامكان » ، كما كان يقول بسمارك .

وطريف ان ينهي هذا « الثعلب القديم » مذكراته بما يشبه التوبة والتقى فيقول :

« بعد حياة مليئة بالأحداث ، بالآمال الكبيرة وخيبات الامل ، اصبحت مقتنعاً باستحالة انقاذ العالم الغربي

بوسائل المنطق والمادة . الأزمة في وجودنا الروحي هي التي قادتنا الى شفير الهاوية .. واذا لم اكن مخطئاً في قراءة علامات الساعة فان الكارثة التي حلت بالمانيا قد كشفت عن قوى كانت قد طمست في عهود التفكير المادي . والان نشاهد عودة الى القوة المطلة من علٍ على شؤون الارض والتي اعطت حياتنا معناها الحقيقي . »

« ان تأليه المادة والآلة والجماهير وسلطة البشر .. بدأت تتراجع امام الفكر الروحية القديمة . ان الله اعطى الانسان عقلاً لتدبير شئون الدنيا . وان استعباد المادة للعقل يجب ان ينتهي . وشخصية الفرد يجب ان ترد الى اعتبارها الاول . لا نستطيع ان نوقف اكتشافات العلم ولكن نستطيع ان نخضعها ثانيةً لسلطان العقل . وعند ذلك يمكن ان نقاوم « الدولة الكلية » التي غدت امةَ العلم والمادة . ويجب ان نقوم بحرب صليبية لترد الايمان بالله الى مكانه الطبيعي في محور الامور . هذا هو الواجب الاخير الذي يجب ان نكرس له حياتنا مهما يكن مركزنا في نظام الاشياء . »

ويتساءل القارىء ما هو مركز فون بابن الآن في نظام الاشياء ، وهل يتاح له بعد السبعين ان يلعب دوراً آخر ويستأنف خدمته لالمانيا على مذهب جديد ؟

لا نكون مبالغين اذا قلنا ان فون بابن لم يتوقف قط عن العمل لبلاده ، ففي محكمة نورنبرغ كان يدافع عن

نفسه وعن المانيا ايضاً ، وفي السجن والمعتقلات كان اميناً على كرامته وكرامة المانيا معه ، وهذه المذكرات هي اكثر من ذكريات تاريخية وتأملات فلسفية . انها بمعنى واقعي « فعل » سياسي من الافعال قد احسن فون بابن اداءه واحسن توقيته واجاد الاعتذار لنفسه ولالمانيا وارسل شعاعاً من الامل امام الاجيال الالمانية الصاعدة ، واطل على حكومة المانيا ، او على الحكومتين [1] ، وعلى السلطة المحتلة ، او على السلطات الاربع [2] ، اطل عليها جميعاً بكبرياء الالماني الجريح من وراء كلمات « سينيك » [3] في اول صفحة من الكتاب :

« ان ابعدتك الظروف عن الصف الاول في الدولة فيجب ان تحافظ على موقفك وتخدم بلادك بالقول ، واذا كمّ احدهم فمك فيجب ان تحافظ على موقفك ايضاً وتخدم بلادك بالصمت . فانتفاع البلاد بالمواطن الصالح لا ينتهي ابداً . بأن يُسمع ويُرى ، بتعبيره ، باشارته ، بعناده ، وبمجرد مشيه ، يقدم لبلاده الخدمات » * .

---

١ حكومة « بون » وحكومة المانيا الشرقية .

٢ قوات الاحتلال التابعة لاميركا وروسيا وانكلترا وفرنسا .

٣ فيلسوف رواقي عاش في القرن الاخير قبل المسيح .

* نشرت في مجلة النواعير في آب ١٩٥٣

قيصر واهل الرأي

•

قيصر او فرعـــون ، او الحاكم بأمره ، او الحاكم المطلق ، او المستبد ، او الظالم ، او الطاغية ، او الجبار في الارض هو « الدكتاتور » في اصطلاح الغرب .

واهل الرأي هم طبقة العلماء ، او العقلاء ، او الحكماء ، او المثقفون ، او المستنيرون ، او تلك الفئة من الامـة التي تنزع الى التفكير الحر ويطلق عليها الغربيون الكلمة الروسية الاصل القوية التعبير « الانتليجانسيا » Intelligentsia .

والذي نرجو ان نتحققه في هذا البحث اليسير هو نوع الصلات وطبيعه العلاقات بين قيصر واهل الرأي .

ما موقف قيصر من تلك الفئة المستنيرة ؟

وما موقف المستنيرين من قيصر بالنسبة للشأن العام ؟

يقول يوليوس قيصر لانتونيوس في مسرحية شكسبير :

« لا اريد من حولي الا رجالاً سمانـــاً غلاظاً مسبولة

شعورهم ينامون الليل . اما ذلك الرجل كاشياس فله نظرة جائعة وقد شحب وجهه ودق عظمه من الفكر وان امثاله لأشدّ الناس خطراً . »

فيجيب انتونيوس : « لا تخش منه بأساً يا قيصر . انه رجل رقيق الجانب ومن أشراف الرومان . »

فيعود قيصر الى القول : « ليته كان اسمن مما هـو ، ولكني لا اخشاه ، غير انه لو كان مثلي ممن يخاف لما عرفت رجلاً امعن في الهرب منه خوفاً من شره إلا ذلك الهزيل الاخمص كاشياس . انه كثير المطالعة والدرس ، نقادة يسبر بصائب نظراته غور الاعمال واعماق الرجال . »

واحسب ان شكسبير قد اصاب مرة اخرى في فهم طبائع البشر ، وكشف عـن نفسية « القيصر » وسجل شعوره نحو رجال الفكر تسجيلاً خالداً في الادب الكبير .

وتاريخ الاستبداد وسير المستبدين تؤيد ما ذهب اليه شكسبير . فهذا هتلر من قياصرة الزمن الاخير ، يحدثنا من ارخ له [١] انه كان يمقت المثقفين وأصحـاب الرأي – السادة بشهادات – كما سماهم بازدراء . وكان يؤثر عليهم الدهماء ويعتمد على غرائز الجمهور وعلى الايمان الذي ينبعث من تلك الغرائز . وكتب هتلر في « كفاحي » يقول : « بينما تلتحم صفوف عامـة الشعب لتؤلف مجتمعاً شعبياً مشتركاً ، يقفز المثقفون من هنا وهنـاك كدجاجات في

---

١ Alan Bullock في كتاب عنوانه Hitler, A study in Tyranny

حديقة الطيور ويستحيل ان تصنع تاريخاً مع هؤلاء اذ لا يمكن استخدامهم كعناصر داعمة للجماعة . »

ويشارك هتلر في هذه النظرة المريبة الى اهل الرأي نمط من الساسة يعملون ضمن انظمة الشورى وفي طبائعهم نزعة استبدادية مكبوتة وحب للامرة وفرض الارادة . مثالنا على ذلك « ارنست بيفن » الزعيم العمالي المشهور . فقد كان بيفن يضيق بالنقد يأتيه من نواب في العمال بمجلس العموم ولا يفهم كيف تشذ اقلية ، مهما كان ذكاؤها وامتيازها عن قرارات نقابات العمال – وكان لا يثق بتلك الفئة المفككة ويزعم ان افرادها « مثقفون لا جذور لهم Rootless Intellectuals » ، تعوزهم الاصالة وتضعف عندهم العصبية . ٢

وقيصر التام يضطر اهل الرأي الى الصمت والخمول والموت البطيء . اما اذا أصروا على الكلام فانه يأخذهم اخذ مقتدر فينفي ويشرد ، ويسجن ويعذب ، ويكيد ويغتال ، ويحاكم ويحكم بالاعدام ، ويفعل كل ذلك باسم الامن والنظام ومصلحة الدولة (Raison d'Etat) .

هذا هو شأن قيصر او صاحب النزعة الاستبدادية ، فما شأن رجال الفكر ؟

اذا كان للملك صولجان فان للمفكر لساناً ويراعاً ، كما

---

٢ . Francis Williams في كتابه :

Ernest Bevin, Portrait of a Great Englishman

قال فولتير لفريدريك الكبير . وهذا اللسان او اليراع سلاح خطير في مقاومة الطغيان وفي القضاء عليه ، ولم يكن « ولي الدين يكن » مبالغاً حين خاطب السلطان عبد الحميد بقوله : « لاهزن بقلمي اركان قصرك هزاً » .

وبعض رجال الفكر لا يكتفون بالنصح والتحذير والتهديد ، وانما يبدأون بوصف الظلم وتحليل الطغيان، ثم يبررون الثورة ويدعون الناس الى التخلص من الطاغية بكل وسيلة . يكفي ان نقتبس واحداً من هؤلاء وليكن بعيداً قديماً ، ايطالياً من القرن الرابع عشر . كتب بوكاشيو :

« هل ادعو الطاغية ملكاً واميراً ، واطيعه باخلاص كأنه سيدي ومولاي ؟ كلا . انه عدو الدولة ، ضده يجوز لي ان استعمل السلاح ، وابث العيون ، وانصب الشراك ، واكيد له كيداً ، ذلك كله واجب مقدس علي ، ولا قربان ارضى لله من دم الطاغية . »

فالعلاقة بين قيصر واهل الرأي اذن هي العداء المستحكم والحرب الدائمة والطراد المستمر والضد الذي يريد ان يسحق ضده ويلغيه من الوجود . هكذا كانت العلاقة بين قيصر واهل الرأي في كل زمان ومكان ، وستبقى كذلك الى آخر الدهر .

فيمَ وعلامَ هذا العداء المميت بين قيصر والمفكرين ؟

اولاً – ان قيصر هو رجل العمل والتنفيذ والانجاز وحزم الامر . وتفكير المفكرين واطالة البحث وتقليب

وجوه الرأي قد يؤخر الشروع بالعمل وقد يفسد العزيمة ويفوت الفرصة على صاحبها . وليس من السهل تحقيق التوازن المرغوب بين التفكير والعمل ، ذلك التوازن الحكيم الذي حققه الآثينيون وفاخر به بركليس : « وليس النقاش في نظرنا معرقلاً للعمل ، وانما العائق الكبير هو فقدان تلك المعرفة التي تنال بالنقاش المهيىء للعمل ، ولنا قدرة على التفكير قبل العمل وعلى التنفيذ ايضاً ، بينما يقدم غيرنا عن طيش ويحجم بعد النظر . »

ثانياً – ان قيصر مستبد بالامر مستأثر بالسلطان ، ومجرد انفراده بالسلطان يجعله ظالماً ومعتدياً على حقوق الاخرين . فالسلطان للامة ، لجميع افراد الامة على السواء ، وقيصر حين يستأثر بالسلطان يسلب كل فرد من افراد الامة حقه في الحكم ونصيبه من السيادة . اما القول الذائع في الشرق العربي والمنسوب خطأ الى جمال الدين الافغاني **« لا يصلح الشرق الا مستبد عادل »** فانه ينطوي على تناقض فاضح ورأي فطير ، ذلك ان المستبد لا يمكن ان يكون عادلاً وهو الذي ابتدأ ظالماً حين حرم الناس جميعاً من حقوقهم السياسية واستأثر بالامر من دونهم . اما ما قاله جمال الدين ورواه الثقات فهو كما يلي : « اذا اتاح الله **رجلاً قوياً عادلاً** لمصر وللشرق ، يحكمه باهله ، ذلك الرجل اما يكون موجوداً او تأتي به الامة فتملكه على شرط الامانة والخضوع لقانونها الاساسي وتتوجه على هذا

القسم ، وتعلنه انه يبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظاً اميناً على صون الدستور ، وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الامة ، اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، او تاجه بلا رأس[٣] . » فالذي عناه جمال الدين هو الملك الدستوري وليس الحاكم المستبد. وجمال الدين الافغاني وامثاله من المفكرين الاحرار هم الباحثون عن الحق والحقيقة والحقوق ، وهم الذين ينبهون افراد الشعب الى حقوقه الطبيعية المسلوبة والى كرامته الممتهنة والى انسانيته المنتقضة ويستهدفون حرية الناس وعدل الحكومات ، فهم اعداء الاستبداد بطبيعة الحال .

ثالثاً – ان قيصر يصرف الامور على مقتضى الهوى لنفعه الخاص ومجده الفردي ، واهل الرأي رائدهم العقل وغايتهم صلاح الجماعة « يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ولا يمكن ان يسمعوا ويطيعوا ما لم يظهر لهم وجه الحق وتتضح معالم الخير .

رابعاً – قد يبتدىء القيصر حسن النية يبتغي لقومه الخير والفلاح ولكن انفراده بالسلطة دون رقابة ولا محاسبة يؤدي به حتماً الى اساءة استعمالها . « ان الانسان ليطغى » ، ولا يؤتمن بشر قط على سلطان لان السلطة تفسد ، كما يقول اللورد اكتون ، والسلطة المطلقة تفسد على الاطلاق . واهل الرأي المستحقون لهذا الشرف ، يدركون

---

٣ رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، ص 200 .

هذه الناحية الضعيفة من طبيعة البشر فيضعون القواعد والاصول لممارسة السلطات ، ويجعلون الحاكم مسئولاً امام المحكومين ، ويقيدونه بالدستور ويفرضون عليه الرقابة الشديدة ويحاسبونه الحساب العسير .

خامساً – ان قيصر لينزع الى الانفراد بالمجد فلا يرضيه ان يكون القمر المتلالىء بين النجوم والاول بين الاقران Primus inter Pares ، وانما يريد ان يكون الشمس الساطعة التي تكسف القمر وسائر الكواكب ، والواحد المفرد في الميدان الخالي . وان المفكرين لقوم ممتازون تحيط بهم هالة من جلال الفكرة وبهاء المعرفة ، فكيف يطيق القيصر امتيازهم وهو الرجل المحدود الذي سيطر على العالم بالجرأة والمغامرة ، ولو استطاع ان يبرز ويلمع بمحض العبقرية لما احتاج الى العنف والاستبداد ولاكتسب سلطة ادبية واسعة وتقديراً حقيقياً وحباً اكيداً هو خير من الاعتماد على القوة والقهر في حكم الشعوب .

سادساً – قيصر المستبد الظالم هو عدو لجميع المواطنين الشرفاء الصالحين ، واهل الرأي في طليعة المواطنين الشرفاء الصالحين يغضبون لكرامتهم وكرامة الآخرين ، ويطالبون بحقوقهم وحقوق الغير ، ويتألمون لهوانهم وهوان الناس اجمعين ، ويتطلعون الى حياة فاضلة لا يمكن ان تتحقق في ظل الحكم القيصري .

سابعاً – يحتاج اهل الرأي الى اجواء من الحرية

والعدالة ليستطيعوا العيش كمفكرين احرار وليؤدوا رسالتهم في نشر الحقائق واشاعة النور . لكن قيصر يؤثر الظلام ويعتمد في حكمه على الجهل والخوف ، فيقيد الحريات ويخضع الكتابة والخطابة لرقابة عسيرة ، وقد يعطل اداة الفكر وآلة النشر تعطيلاً جزئياً او كلياً ، ويحاول ان يقضي على الافكار والمفكرين .

ثامناً — المفكر رجل حر وسيد كريم لا يمنح ولاءه لحاكم مستبد ولا ينقاد انقياداً اعمى لاي كان ، ويأبى ان يكون شيعة لفلان او تبعاً او خادماً أو عبداً — تأبى له كرامة العلم وشرف الفكر وقدسيــــة الانسان . والقيصر يبحث عن معية واتباع وافراد بطانة وحاشيـــة ، لذلك يلجأ الى اوساط الناس واصحاب العقول السخيفة والنفوس الضعيفة ويتخذ منهم وزراءه واعوانه . امـــا الاباة ، اما السادة ، اما الاحرار فيبتعدون عنه وينتظرون سقوطه بين لحظة واخرى ، لترد الامور الى نصابها وتحتل القيم الاخيرة مكانهـــا ويعود الفكر مرشداً هادياً .

ولا سبيل الى التسوية بين قيصر واهل الرأي ، فـأما ان يتنازل القيصر عن سلطانه المطلق ويصبح حاكـمـــاً دستورياً مقيداً معقولاً ويرجع الى اهل الرأي في الامة ويشاورهم في الامر ، او ان يقضي على المفكرين جميعاً ، ولن يستطيع القضاء لانه ليس من طبيعة الاشياء ان ينتصر

الشر على الخير في الاجل البعيد . ونظام الاستبداد يمثل طغيان الغرائز العمياء ، ونظام الشورى يمثل حكم العقل المستنير ، ومع تقدم الانسانية وارتقائها يتقدم العقل ويسيطر شيئاً فشيئاً على نواحي الحياة . هذا ويمكن ان ينظر الى سير التاريخ على انه محاولة طويلة جبارة لتحقيق الحرية لجميع الناس . لذلك كله كان لا بد من انهيار القيصر آخر الامر ، واني مستشهد على ضعف القيصر بكلام انتزعه من فم قيصر – فقد كتب موسوليني في لحظة صدق واخلاص : « اذا رأيت قيصر يسير في موكب من الشعراء والادباء يمدحونه ويطرونه فلا تظن انه ملك قوي ، فهم يمدحونه لانهم لبسوا ذهبه واكلوا طعامه وشربوا خمره ويخشون بطشه : ان قيصر ضعيف » .

اجل ، ان قيصر ضعيف ، وحيد ، ابتر ، ليس له في البلاد صديق . وحياته مأساة قد تسف وقد تجل ولكنها تنتهي بكارثة على كل حال . ولعل افجع لحظة في حياة القيصر هي حين يدرك ان انبل ما في وطنه متنكر له – عندها تمر بخاطره كلمات يوليوس قيصر الاخيرة : « .. اذن فليهو القيصر » ... كلمات يائسة مريرة قالها حين رأى أشرف الرومان جميعاً ثائراً عليه مع الثائرين . (اذن فليهو القيصر) تصلح خاتمة لقصة كل قيصر . *

---

* نشرت في « الطليعة » في ٧ كانون الاول ١٩٥٣

كتاب «ازمة الحكم في سوريا»

•

« ازمة الحكم في سوريا » عنوان كتاب اخرجه للناس منذ ايام الدكتور عدنان الاتاسي معالجاً فيه الواقع السوري العربي وممهداً لبناء المستقبل . واحب ان اسجل قبل كل شيء ان الدكتور الاتاسي استطاع ان يعالج هذا الواقع بروح واقعية علمية واستطاع ان يجابه الحقائق كما رآها بشجاعة ادبية كاملة .

ويرى المؤلف ان علة العلل فيما وصلنا اليه هو تغلب الحكم الشخصي او الزعامة الشخصية على الفكرة الحقوقية في المجتمع السياسي . ويرجع في تتبع هذه الظاهرة في حياتنا العربية الى التاريخ العربي ، ويجد ان من النواقص الجوهرية في بنيان الدولة الاسلامية ومما ادى الى انهيارها العوامل التالية :

١) كانت الفكرة السائدة في الاسلام هي ان صلاح

الحكم منوط بشخصية الخليفة وبالصفات السامية التي يتمتع بها ، لا بتنظيم اسلوبه والعمل على تطورها وفق الحاجة لتضمن تطبيق المبادىء الاسلامية في كل الظروف .

٢) لم تكن في الدولة الاسلامية اية قاعدة حقوقية او عملية لكيفية انتقال الخلافة ، فبقي مبدأ المشروعية مفقوداً فيها .

٣) يلوح ان الدولة الاسلامية كانت فاقدة احدى صفات الدولة الأساسية وهي ممارستها حق التشريع ووضع القوانين ، فلم تنشأ او تتطور فيها اوضاع سياسية وادارية ثابتة . ويظهر ان المسلمين فهموا من التشريع انه ذو مصدر سماوي فقط ، فلم تنشأ لديهم فكرة القانون بمعناه الفني واعتبروا ان مهمة الخليفة هي تنفيذ الشرع لا انشاؤه .

ويتقدم المؤلف الى تاريخ سوريا الحديث فيلاحظ ان القادة « كانوا متأرجحين بين الفكرة الشخصية وفكرة القانون » . وقد ادى هذا الاضطراب الى ما ادى اليه في بلاد لم ترسخ فيها بعد فكرة احترام الدستور .

وبعد ان يحدد المؤلف موقفه من هذه الامور على ضوء الواقع يتساءل : كيف ترجع الامور الى نصابها ؟ وعلى اي اساس ؟ ثم يجيب بأن ذلك يستلزم جهاداً شاقاً ووقتاً طويلا واجماعاً من الامة . ويقول ايضاً ان انشاء دولة موطدة الاركان لا بد له من ظروف مؤاتية في

الحكم نلخصها عن المؤلف كما يلي :

أ - الحكم الديمقراطي الذي يصبح ضرورة عندما يرتفع مستوى الادراك الشعبي الى درجة يشعر الفرد فيها بقيمته كانسان . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الديمقراطية هي الحكم الوحيد الذي يأتلف مع طبيعة الشعب العربي ويسمح ببروز مواهبه . فالفكرة الفردية متأصلة في نفوس العرب ولا يمكن ان يكون هدف المجتمع العربي الا احترام الفرد وحريته .

ب - وحدة الصف الوطني واعلان هدنة عامة تقوم على اساس التعاون بين الاحزاب مدة من الزمن لحماية الدستور الديمقراطي وتثبيت الاوضاع ريثما ترسخ التقاليد الدستورية وينفذ روح المشروعية الى الشعب فيوطد العزم على الدفاع عنها ويصبح النظام السياسي في مأمن من مغامرات المغامرين .

ج - القضاء على فكرة الزعامة والانتقال من طور الحكم الشخصي الى طور الحكم الحقوقي .

د - الاخذ بالنظام النيابي الصحيح القائم على انتخابات حرة وعلى حكم الاكثرية مع احترام رأي الاقلية الساعية الى ان تصبح بدورها اكثرية مشروعة .

هذا فيما أرى الخط الرئيسي للكتاب وقد حوى الى جانب ذلك نظرات عديدة صائبة وجولات موفقة في التاريخ العربي وفي الواقع السوري ومطالعات قيمة في تاريخ

العرب وفي حاضرهم ، مما يدل على ان المؤلف راجع كثيراً وفكر عميقاً وطويلاً قبل اخراج هذا السفر الجليل الذي لا تتجاوز صفحاته المئة والستين .

ومن حق المؤلف علينا ، بل من حق الموضوع الخطير الذي يعالجه الدكتور الاتاسي بحكمته وعلمه واختباره ، ان لا نكتفي بقراءة واحدة سريعة للكتاب وان لا نقنع بمقال واحد في التعليق عليه . وانما هو مقال سريع اردنا ان نظهر في سرعته تقديرنا للكتاب واعترافنا باهميته ، ونرجو ان تكون ملاحظاتنا العاجلة فيما يلي مقدمة لدراسة اوسع تفي الموضوع حقه .

اولاً — لا شك ان الحكم الشخصي تغلب في تاريخ الخلافة الاسلامية على حكم القانون ، لكن في مبادىء الاسلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة وفي تقاليد الصدر الاول من الاسلام ما يصلح اساساً نظرياً ونواة عملية لحكم نيابي ديمقراطي . فهناك مبدأ الشورى وبيعة اهل الحل والعقد وذلك المجلس الذي الفه على عجل عمر وكان من الممكن ان ينمو ويتسع ويتطور مع الايام الى ما يشبه النظام النيابي الحديث لولا ان حدثت احداث عرقلت ذلك النمو الطبيعي . واعتقد انه من الخير ان نؤلف جسراً بين الديمقراطية الحديثة وبين تجربة ذلك الصدر من الاسلام .

ثانياً — ان حرص الدكتور الاتاسي على سيادة القانون

وعلى جعله فوق الاشخاص جميعاً وفوق الزعامات ، وتأثره بتجاربنا الماضية وشعوره بوطأة تاريخنا ، كل ذلك جعله يستبعد « الزعامة » ويخشاها ويصورها على انها آفة كبرى وشر مستطير . وكنت افضل ان يبقى للزعامة معناها الحسن وان يفرق بينها وبين الحكم الشخصي الذي يعتبره معارضاً ومنافياً لحكم القانون . فالزعامة الادبية المستنيرة التي تعمل في ظل القانون وضمن اطار الدستور والتي تستمد سلطانها الادبي من امتيازها وسموها وحب الناس لها وثقتهم بها ، هذه الزعامة قد تكون خيراً وبركة وضرورة . فالنظام النيابي والاحزاب والحياة العامة تحتاج الى قيادة وتوجيه وسلطان ادبي من هذا النوع . والدساتير مهما كانت نصوصها الفاضلة ، والمؤسسات مهما تعددت وارتقت ، لا غنى لها عن الشخصية الانسانية الكريمة التي تؤول النصوص وتعمل احكام الدستور وتدفع الحياة في المؤسسات . والشعوب الديمقراطية لا تخشى الزعامة وانما تتطلبها وتعرض عن حكامها اذا لم يوجهوا ويقودوا ويحسموا الامور . وينبغي التفريق على كل حال بين الطغيان الفردي الذي يتخطى القوانين والاعراف ويعتمد على القوة والقهر ، وبين الزعامة الادبية التي تعتمد على الحب والتقدير الحقيقي والتي تعمل دائماً للاهداف العليا في ظل الدستور ومع اتجاه الضمير العام . والزعامة ككل مؤسسة بشرية يمكن ان

بساء استعمالها ، والضمانة الاخيرة هي في خلــق المواطن حاكماً ومحكوماً .

ثالثاً – يتحدث المؤلف عن الدستور والحكم الدستوري ولا يشير الى دستور معين ، والذي ارجحه انه يقصد الى دستور غير موجود ، قد اكتفى بتقرير مبادئه الاولى ووضع خطوطه الكبرى ، ودليلي على ذلك انه يدعو الى اسلوب المجلسين والى ايجاد مجلس شيوخ يكتمل به تمثيل البــلاد ، وليس في الدساتير السورية المتعاقبة مثل هذا المجلس .

وكنت اتوقع ان يثير المؤلف موضوع الوضع الشرعي والدستور الذي ترجع اليه البلاد تثبيتاً لمبدأ « المشروعية » وترسيخاً لفكرة الدستور ، اقول هذا على صعيد الفكر المجرد وقد تكون هناك اعتبارات عملية تباعد ما بــين « المشروع » و « الممكن » كما باعدت غير مرة .

رابعاً – حبذا لو فرق المؤلف في دعــوته الاحزاب الى التعاون والمهادنة بين الاحزاب الديمقراطية والاحزاب ذات النزعة الاستبدادية ، وذلك بالنظر الى امرين اثنين :

اولاً ، فلسفة الحزب وافكاره ومبادئه .

ثانياً ، تنظيم الحزب واسلوبه في الحكم .

فهناك احزاب تعتقد انها قبضت على الحقيقة كاملة وان حلولها للمشاكل السياسية والاجتماعية هي الحلول النهائية ، ولذلك لا تستطيع ان تهادن حزباً آخر او تتعاون معه أو تدخل في تسويات عادلة معقولة . وهذه الاحزاب تميل

الى حكم الفرد القوي وتجنح الى نظام الحزب الواحد في الدولة . ومن الخير للبلاد ان تعرض عن هذه المواقف المتطرفة ، وان تسود النظرة الحكيمة المعتدلة المتزنة التي يمثلها بامتياز الدكتور الاتاسي نفسه كما يتضح في كل صفحة من كتابه .

وأخيراً اود ان اهنيء الدكتور الاتاسي ، فقد سبق له ان خدم بلاده استاذاً في الجامعة ونائباً ووزيراً وسفيراً ، واخراجه اليوم هذا الكتاب لا يقل عن خدماته السابقة وربما كان اجلها وأبعدها أثراً . *

---

* نشرت في « الطليعة » في ٢١ كانون الثاني ١٩٥٤ .

اذا ...

•

يقول ردیارد کبلنغ في مطلع قصيدته الشهيرة (اذا) « اذا استطعت ان تحافظ على رباطة جأشك حين تضج الحمية في الرؤوس ويسود حولك الغضب ... » واذا نحن استطعنا ان نفكر بهدوء وسط العاصفة ، وان نعبر باعتدال عن رأينا ، واذا اتبعنا الطريقة الحسنى في القيام بواجبنا كمواطنين ... فلنتقدم الى بحث الامور من زاويتين اثنتين هما سلامة الدولة وحرية الشعب . ولا سلامة للدولة ولا حرية للشعب اذا لم تكن هناك قواعد عامة يرضاها المواطنون جميعاً ويعملون ضمن اطارها ويختلفون ضمن الاطار الكبير . سم هذه القواعد اصولاً او دستوراً او ميثاقاً او قوانين . المهم ان توجد مبادىء اساسية متفق عليها بين ابناء الوطن الواحد حتى يستقيم العيش في الوطن

الواحد . والدولة الحديثة ، بلغة اهل النظر السياسي ، قائمة على فكرة عقد اجتماعي ملزم للحاكمين والمحكومين جميعاً ؛ فان لم يستطع المواطنون ، حكاماً ومحكومين ، ان يجدوا ذلك الحد الادنى من الامور المسلم بها ، وان يدخلوا في ذلك العقد ، وان يحصروا خلافاتهم فيما دون ذلك من امور ، فلا استقرار في البلاد مهما تكن القوة التي يعتمدها الحاكم والخوف الذي يستشعره المحكوم . والناس في هذا العصر ، اذ يعرفون حقوقهم ويعرفون واجباتهم ، لا يسمعون ولا يطيعون ، في المدى البعيد ، ولا يدفعون الضرائب للدولة ، ولا يقدمون انفسهم فداء لها الا عن رضا وقناعة واختيار .

لذلك كله كان من الاهمية بمكان ان تحدد الامور التي ينبغي ان يتفق عليها الجميع حتى يختلفوا فيما دونها وضمن اطارها لأن الخلافات بين ابناء الوطن الواحد يجب ان تدور دائماً ضمن الاطار المقبول وفي حدود العقد الاجتماعي .

من الطبيعي ان يختلف الناس في عقولهم وامزجتهم وفي آرائهم ونزعاتهم ، ومن الطبيعي ايضاً ان يتنافس الرجال في خدمة الاوطان . فاذا كان نظام الدولة لا يسمح باختلاف الآراء ولا يتسع للتعبير عن الآراء المختلفة ، واذا كان نظام الدولة يقصر شرف الخدمة العامة على فئة

من الناس ويحرم سائر الناس من ذلك الحق وذلك الشرف ، فان الخلاف ينتقل الى خارج الاطار المرسوم او لا يبقى هنالك اطار تجري ضمنه المناظرات . وان ضمن الاطار قواعد للاختلاف واصولاً للاحتكام وآداباً لحل المشاكل ، اما خارج الاطار فلا قواعد ولا اصول ولا آداب ولا سياسة ولا اجتماع ، وانما هي شرعة الغاب وردة الى الجاهلية الاولى ، (أفحكم الجاهلية يبغون ؟)

وحين تنتقل الحياة العامة الى ذلك الصعيد وتجري المناظرة المحتومة بين الحكومة والمعارضة بالعنف والبأس الشديد ، عندها تفقد الدولة استقرارها وتضطرب حرية الشعب بين طرفين : السلطة المطلقة والفوضى المظلمة ، ويصيب جسم الدولة حمى تضيع معها الاحلام ويقضي فيها الاخ المواطن على اخيه .

ويقف المواطن الصالح قلقاً حائراً متسائلاً : اين طريق الواجب ؟؟

ولا يكون المواطن صالحاً ولا يكون انساناً كريماً اذا وقف متفرجاً لامبالياً حين تحدث في بلاده الاحداث وتتعقد الامور. وكل فرد مكلف ان يوعى المصالح العامة ، والدولة سفينة في خضم ركابها المواطنون المرتبطون بمصير واحد . وقد جاء في حديث نبوي : « ان قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل

منهم موضعه بفأس ، فقالوا ما تصنع ؟ قال هو مكاني اصنع فيه ما اشاء. فان اخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا ».

كل فرد مسئول اذن عن قومه ، ولا يجوز لمواطن قادر ان يتجاهل حق الوطن عليه . ولكن ما هو طريق الواجب ؟ وكيف يرعى الشأن العام ؟

طريق الواجب امام المواطن العادي قد خطه سقراط منذ القدم باحرف من نور ما تزال عبر العصور تضيء . فقد دعا سقراط اهل آثينا الى ما رآه حقاً وخيراً ، ومضى في دعوته رغم التهديد والوعيد ، ولما عجزت آثينا ان تثنيه عن دعوته حكمت عليه بالموت بتهمة الالحاد وافساد الشباب ، وليلة تنفيذ حكم الاعدام دبر اصدقاؤه طريقة لانقاذه وجاءوا ليقنعوه بضرورة الهرب وكانت الحكومة ترغب ضمناً في هربه لتتخلص من دعوته ومن وزر اعدامه ، لكن سقراط العظيم ابى ان يهرب واقبل على الموت بكل رضا تنفيذاً للقوانين التي كان يرى وجوب احترامها ولو كانت جائرة .

فما يجوز لمواطن ان يهدم الدولة بتمزيق قوانينها ، وانما يجب عليه ان يدعو الى صلاح الحكم بالتي هي احسن وان يمضي في دعوته الى النهاية لان من احب وطناً احبه على علاته واحبه حتى الموت .

وما هو طريق الواجب امام المواطن الحاكم ؟

ليذكر الحاكم ان استعمال القوة لا يكون الا تدبيراً موقتاً ، فقد تخضع القوة شعباً حيناً من الدهر ولكنها لا تزيل ضرورة القمع والاخضاع كل حين . وتدبير الملك وسياسة الناس هي غير القمع المتكرر والقهر المعاد والاخضاع المستمر .

وان من مصلحة الحاكم نفسه ان يحترم عقداً اجتماعياً او قانوناً اساسياً ، مكتوباً كان او غير مكتوب ، لانه اذا خرج الحاكم على العقد فانه يفتح ثغرة كبيرة امام الخارجين ، ولا تبقى للقوانين حرمة وقدسية تحميه .

والطريق السوي امام الحاكم الفاضل هو ان يحكم الامة برضاها او يرد الامر اليها . ألسنا جميعاً متفقين على ان ارادة الشعب هي الاساس السليم الوحيد للحكم ؟ اذا كانت ارادة الشعب هي الاساس فان التعبير الحر عن تلك الارادة يغدو اساسياً ايضاً .

ولكي تطبق هذه الاصول التي نجدها في الاسلام ونجدها في الديمقراطية الحديثة ونجدها في كل بلد متمدن كريم وجب ان ننتقل من جوامح « الغاب » الى ضوابط « المدينة » ، ونعزم على ان يكون هذا الوطن لنا جميعاً ، نحمي استقلاله ونرعى مصالحه ونعيش فيه احراراً كراماً متساوين في الحرية والكرامة والحقوق ، امرنا

شورى ، ونقاشنا حر ، واختيارنا فاضل ، وحكامنا خيارنا على الاطلاق . هذا اذا اردنا حقاً ان ننقذ البلاد من الفتنة ونجنبها العثار ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ واهلها مصلحون » * .

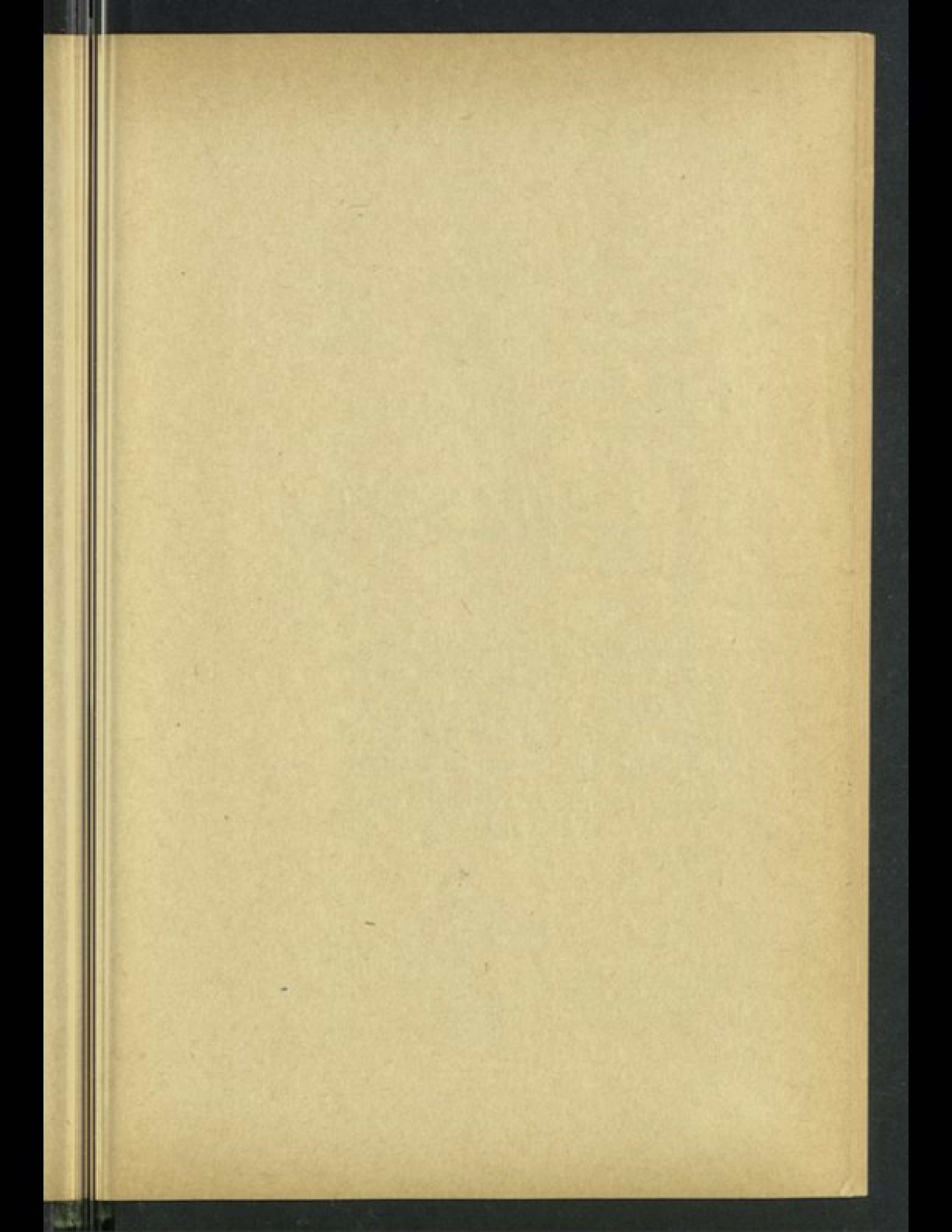
---

* في العاشر من شباط ١٩٥٤ .

بعد الحدث الأخير

اما في الوقت الحاضر فما اقل رجال الدولة اصحاب الجرأة والثبات بين ظهرانينا . انكم لا تستطيعون ان تتصوروا حزني عندما ارى البعض غير مبالين ، والبعض كثيري الاهمـال ، وآخرين ينقصهم العزم والصبر في خدمة القضية التي تبنوها ، ولا ينظرون في اتخاذ قراراتهم الى ما هو ملائم للدولة وانما يسوقهم احياناً الامل ، والخوف احياناً .

شيشرون



دروس السنوات الاخيرات

•

لست اقصد في هذا الحديث الى محاكمة الماضي والقاء المسئوليات على الذين لعبوا الادوار الفاجعة في السنوات الاخيرات .

ومن انا حتى احاكم الماضي ؟ وما الفائدة من ذلك ؟

في اثناء الحرب العالمية الثانية قام احد النواب في مجلس العموم يطلب الى حكومة تشرشل ان تحاسب تشمبرلن وهاليفاكس ولفهما من اعضاء الحكومة السابقة على تقصيرهم في ادارة الحرب ، فوقف تشرشل وانهى الجدل بكلمات حاسمات : « اذا انتصب الحاضر ليحاكم الماضي فانا نضيع المستقبل » .

ولسنا نعرف مسئولاً واحداً او عدداً معيناً من المسئولين حتى نحصرهم في قفص الاتهام . كما انا لا نعرف فرداً واحداً بلا خطيئة حتى ننصبه قاضياً في محكمة

التاريخ .

الامة بأسرها مسئولة عما الم ّ بها . الامة بجميع رجالها واجيالها وفئاتها واحزابها ، لا اكاد استثني احداً ولا اكاد ابريء نفسي .

مسئولون ، الضباط الذين لم يراعـوا اختصاصهم ولم ينقطعوا لعملهم الطبيعي وانمـا هاموا في شعاب السياسة واتخذوا سبيلهم الى الحكم عجباً .

ومسئولون ، الطلاب الذين اهملوا دروسهم اهمالاً وحاولوا ان يملوا سياسة البلاد من الشارع العريض .

مسئولون ، الموظفـون الذين دخلوا الاحزاب وراحـوا يمثلون مصالح احزابهم في دوائر الدولة اليتيمة .

مسئولون ، رجـال الصحافـة الذين ضخموا مساويء الديمقراطية السورية في ظل الديمقراطية ثم لم يجدوا في الحكم المطلق عيباً ايام الحكم المطلق .

مسئولون ، الكتـّاب والادباء والشعراء الذين اضرموا النار في الصدور ووجهوا النقمة الى الحاكمين وارضـوا كبرياء الشعب حين زعمـوا له ان الكوارث التي نزلت بالامة العربية وان الهزيمة في فلسطين كانت من صنع الملوك والرؤساء وحدهم . أتريدون ان اضرب لكم مثلا ؟ هذا

شاعر سوري كبير يقول في حفلة الترفيه عن الجندي السوري خريف ١٩٤٨ :

امتي هل لك بين الامم منبر للسيف او للقلم
كيف اغضيت على الذل ولم تنفضي عنك غبار التهم
او ما كنت اذا البغي اعتدى موجة من لهب او من دم
فيم اقدمت واحجمت ولم يشتف الثار ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزانى واطربي
وانظري دمع اليتامى وابسمي
واتركي الجرحى تداوي جرحها
وامنعي عنها كريم البلسم
ودعي القادة في اهوائها
تتفانى في خسيس المغنم
رب « وامعتصماه » انطلقت
ملء افواه الصبايا اليتم
لامست اسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم
امتي كم صنم مجدته لم يكن يحمل طهر الصنم
لا يلام الذئب في عدوانه
ان يك الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك
لما كان في الحكم عبيد الدرهم

بيان جميل يضلل الناس تضليلاً ويشوه الحقائق تشويهاً ويوغر صدور الضباط والجنود على الحكام المدنيين ، ويصور الحكام على انهم اعداء الشعب فهم ذئاب مفترسة واصنام مدنسة وعبيد مال . فكيف تنتظرون من الجنود الذين يسمعون هذا الكلام الولاء للدولة والطاعة للحكام ؟

ومسئولون ايضاً المشتغلون بالسياسة الذين زينوا للضباط والجنود وسيلة الانقلاب ودفعوا الطـــلاب الى التظاهر والاضراب وحشدوا الموظفين في مكاتب الاحزاب .

ومسئولون ، الذين حكموا فلم يكونوا حكماء في الحكم وعارضوا فلم يكونوا حكماء في المعارضة . وهدم المدنيون بعضهم بعضاً ورسموا للناس فكرة سيئة عن الحياة السياسية في البلاد ، حتى قال الناس الديمقراطية شيء جميل ولكنها لا تصلح لنا .

ومسئولون ، افراد الشعب والمواطنون العاديون الذين اظهروا القبول والرضا لكل غاصب حتى قال سياسي كبير: « آفة الحكم في الشرق غرور الحاكمين ونفاق المحكومين » .

وكذلك مسئولون ، المواطنون النابهون الذين ابتعدوا عن غبار الميدان كأن الامر لا يعنيهم ، يقول واحـــدهم (تركت السياسة) ويقول آخر (لا ناقتي فيها ولا جملي) وهم ، لو علموا ، اصحاب الناقة وهم اصحاب الجمل .

الامة باسرها مسئولة اذن وعليها ان تتحمل بشجاعة وصبر نتائج اخطائها وآثامها ووطأة تاريخها ، وان تعترف بالاخطاء والآثام وضرورات التاريخ .

قال علي بن ابي طالب في اول خطبة خطبها بالمدينة : « قد كانت امور لم تكونوا فيها محمودين . اما اني لو اشاء ان اقول لقلت ، عفا الله عما سلف » .

عفا الله عما سلف ، بالنسبة للاشخاص ولكن لا بد من البحث عن العوامل الفعالة والاسباب ، ولا بد من محاولة فهم التاريخ واستخلاص العبر من الايام . فالاحداث التي تستغرق ربع قرن عند غيرنا أو نصف قرن قد اختصرت عندنا في خمس سنين كثيفة مثقلة باحمالها .

ولعل هذا راجع الى انا افقنا على العالم ضحى ، فوجدنا انفسنا متخلفين عن الركب الانساني بضعة قرون ، فحاولنا ان نعوض ما فات وان نلحق بالركب ونثب الى اغراضنا وثباً فكانت العثرات من تلك الوثبات . والعثرات والزلات والاخطاء هي ذخيرة التجارب في حياة الامم تعلم الشعب وتوقظ وعيه وتكمل نضجه .

فالسوريون في ربيع ١٩٥٤ هم غير السوريين في ربيع ١٩٤٩ . لا شك ان الحوادث اعطتنا واخذت منا واحدثت اثرها في نفوسنا وفي اساليب تفكيرنا . الانقلابات او الثورة كما يقول (بورك) لا تترك بلاداً على ما وجدتها عليه . لقد هدمت صروح كثيرة فاي بناء نرفع الآن

على الانقاض ؟ أتكون هذه السنوات الطائشات قد ذهبت من عمرنا سدى ؟ انه لمخيف حقاً الا نعتبر بما حصل وان نعود سيرتنا الاولى .

لماذا انهارت الجمهورية السورية ؟

لماذا قامت الدكتاتورية وكان لها في ارضنا دعاة وانصار ؟

لماذا استحال الحكم وصعب الانقياد واضطربنا بين طرفين : الفوضى من جهة والسلطة المطلقة من جهة ثانية ؟

لماذا لم نستطع ان نحقق التوازن الحكيم بين الحرية والسلطان ؟

لقد اشرت الى بعض العوامل المباشرة في اول هذا الحديث ، وهناك عوامل بعيدة واسباب عميقة معقدة متشابكة هي اقوى من زيد وعمرو ولعلها هي التي دفعت زيداً وعمراً وبكراً الى ان يتصرفوا كما فعلوا . هناك قوى اجتماعية صادرة عن طبيعة الاشياء وقدر تاريخي يجري من ينابيعه العميقة الى غايته البعيدة .

فنحن ، اولاً ، امة قديمة تحمل في كيانها رواسب تاريخ طويل مختلف . دخلنا مسرح العالم اول مرة امة فذة تعلم الناس الآداب قبل ان تحكم الناس ، وتغير القلوب والعقول قبل ان تفرض الاحكام على الابدان . وعرفنا لوناً من الحكم على عهد ابي بكر وعمر قائم على دستور مكتوب (القرآن) وعلى عقد بين الحاكم والمحكوم (البيعة) وعلى اشراك اهل الرأي في الامر (الشورى) ، وكان في

ذلك كله نواة صالحة لحكم ديمقراطي كريم . لو سمحت بتحقيقه الايام .

وكنا في عصورنا الذهبية فاتحين حاكمين واصحاب امبراطورية ضخمة وامرة وسلطان . ولكن بيننا وبين عصر البطولة هذا الف سنة من حكم الفرد المطلق ومن تحكم الاعاجم بالعرب . فلم يتح لنا ان نتمرس بالحرية زمناً طويلاً ولم يتح لنا المران على السيادة مرانا سليماً متواصلاً ، ولم تنشأ للحرية عندنا مؤسسات وتقاليد وآداب . وهذا معنى فقدان النضج السياسي الذي افسح المجال امام النظم القيصرية والوسائل الديكتاتورية . فالشعوب العريقة في ممارسة الحريات لا تتخلى عن حرياتها بسهولة ولامبالاة كما فعلنا ، وانما تضبط الحرية وتنظمها وتداوي جمحات الحرية بتقوية فضائل الاحرار .

ثانياً – ثم ان النظام التقليدي للاشياء بدأ ينهار مع ابتداء هذا القرن . كان الدين هو الاساس لهذا النظام ، وقد رأيتم كيف ان الدين اخذ يفقد سلطانه على العقول والقلوب ، وكيف تساقطت حلقات السلسلة الاجتماعية تحت تأثير عوامل الاجتماع والاقتصاد ، وكيف غابت خطوط الصورة القديمة للمجتمع المبني على المركز والمنزلة ليحل محلها فكرة الانسان الفرد المجرد .

وقد حصل شيء من هذا في العالم كله لكن عالم الغرب كان مهيأ له باعداد طويل وتطور متصل ، اما نحن فقد فاجأنا التيار بدون مقدمات .

وبينما كان الدين يضعف شيئاً فشيئاً لا سيما في الطبقات المتعلمة والآخذة باسباب العلم كانت ريح القومية تهب على الشرق القريب عنيفة جارفة وتدفع العرب الى الثورة على الخليفة العثماني . وظهر بشكل واضح تراجع السلطة القديمة امام القوة الجديدة (القومية العربية) .

وبعد الحرب العالمية الاولى وتقسيم العالم العربي الى مناطق نفوذ ودويلات راح كل شعب يسعى الى حريته بوسائله الخاصة فنشأت وطنية سورية هدفها المباشر تحقيق الاستقلال لسوريا اولاً وقبل كل شيء .

ورافق هذا السعي الوطني نشاط الفكرة الديمقراطية واستعمالها كسلاح ماض بيد الوطنية السورية لتقرير مصيرها والتخلص من الانتداب .

وبعد تحقيق الجلاء برزت الفكر الاجتماعية ودعوات ملحة الى العدل الاجتماعي ، وراحت الشيوعية والاشتراكية والاخوانية والتعاونية تحتل الساحة وتستهوي الطلاب والشباب والعمال والفلاحين . واشرف المجتمع السوري على صراع الطبقات والاحزاب والمصالح ، وليس له فكر اساسية ثابتة ومقومات راسخة تدعمه وتجعله متماسكاً موحداً رغم الاختلاف في الرأي والاجتهاد .

فالدين ضعف سلطانه على القلوب ، والعقول وتداعى النظام القديم .

والقومية التي عاشت عليها بعض الدول بضعة قرون

عشناها ربع قرن مضطرب فلم ترسخ اقدامها ولم ترسل جذورها الى اعماق الارض ، والدليل على ذلك انا ما زلنا الى الآن نختلف في امر هذه القومية . فنحن قوميون عرب عند كثرة الناس ، ولكننا عند بعض الناس قوميون سوريون ، وعند آخرين امة اسلامية لا تكتمل الا بشعوب تركيا والافغان والباكستان ، ونحن عند فريق ثالث ناس من الناس يهمهم السلام في العالم والقضاء على القوميات جميعاً .

والوطنية كانت عاطفية سطحية لم تستطع ان تنشيء المواطن الذي يتعهدها ويعيش بها ويقدم حياته عند الاقتضاء دفاعاً عنها . فالوطنية حب للمواطنين وتقدير لقيمة النظام الذي تتعلق به ونحن ما فتئنا نهدم نظاماً فوق نظام ولا نبقى الا على الركام .

والديمقراطية ، عشناها في الشارع ناقمين متمردين ثائرين ولم نعشها بضبط النفس وحكم النفس للنفس والشعور بمسئولية الاحرار . ولم تتوضح مبادىء الديمقراطية لنا ولم تتكامل ادواتها .

مررنا بهذه المراحل سراعاً او مرت بنا تلك التيارات مروراً سريعاً ولم تخلف في اعقابها سوى اجزاء ونتف وبقايا ، لا دعائم ومقومات لمجتمع سليم . فهناك طبقة سفلية من الدين ، وطبقة اخرى من القومية ، وطبقة رقيقة من الوطنية ، وطبقة خارجية من الديمقراطية . هذا هو اديم المجتمع

المتراخي الذي جاءته الاشتراكية والدعوات الجريئة فعصفت به عصفاً . والاحزاب التي الفت كانت صورة مصغرة لهذا المجتمع القلق المتنافر الاجزاء .

والاحزاب التي حاولت ان تتعمق في الامور وتضع فلسفة لها وتستمد برامجها من نظرة شاملة ، حملت فلسفتها ذاتها تناقضات الحياة السورية ونواحي الضعف فيها ، فاختلفت مثلها عن وسائلها حتى كانت اكثر الاحزاب مثالية اسرعها الى تهديم المثل والقيم واتباع وسائل العنف وسحق الحريات القائمة باسم الحرية المطلقة ، وتمزيق القوانين جرياً وراء عدالة نظرية مجردة .

ثالثاً – وزاد في اضطرابنا احتكاكنا المتزايد مع الغرب وتأثرنا بالمذاهب والنظريات والفلسفات التي تلهو بها الامم الناضجة وتقتتل في سبيلها امم اخرى . هذه النظريات والفلسفات من يمين ومن يسار ومن الحاد وفوضوية ووجودية ، هذه الفلسفات التي زلزلت اركان مجتمعات قوية كيف لاتزلزل منا الاركان ؟ وهبت علينا القضايا وأخذتنا اخذاً عنيفاً من جميع الجهات ، واثيرت في سنوات معدودات كل مشاكل الانسان عبر العصور من اقتصادية وسياسية وروحية واخذت تصطرع وتبلغ الذروة في الاصطراع .

والملاحظ انا لم نحتك بالغرب في نقاطه القوية المتماسكة وانما تعرفنا اليه اولاً في اضعف نقاطه واوهن بيئاته ، وكان تأثرنا بفرنسا هو الاعم الاغلب ؛ ذلك ان فرنسا كانت

اسرع من غيرها الى الاهتمام بالشرق القريب ، ثم انها انتدبت علينا ، والمغلوبون بحكم طبيعة الاشياء يقلدون الغالبين كما قرر ابن خلدون .

اني شديد الاعجاب بمزايا فرنسا واقدر خصب تاريخها ومغزاه العميق للانسان انى كان ، لكن المجتمع الفرنسي لا يمثل افضل المجتمعات الغربية ولا تعطي فرنسا صورة واضحة عن المجتمع القوي المتماسك وعن الدولة المثلى .

أ - في فرنسا وتاريخها وآدابها وحياتها تمجيد للثورة الفرنسية وافتتان بكل ثورة . وقد اخذنا عن الفرنسيين تمجيدهم للثورة ، واذكر ان كتاب التاريخ في برنامج صف الشهادة الابتدائية كان يبتديء بالثورة الفرنسية ويصورها على انها ولادة عالم جديد فاضل . واذكر ايضاً حديثاً لاحد كبار الضباط السوريين راح يدافع فيه عن الانقلابات السورية بانها مثل الثورة الافرنسية ، وان الثورة خير وبركة وانها الطريقة العظيمة الصالحة لتقدم المجتمع مهما جرى فيها من دماء . لقد غاب عن الذين يكتبون لنا التاريخ او يعلمون التاريخ ان الانتصارات الحقيقية في حياة الامم والتقدم الاكيد كان نتيجة نمو بطيء مضطرد .

ب - وفي حياة فرنسا مغالاة بالمنطق والنظريات ، وتغليب للمنطق المجرد على ملكة الحكم السليم وعلى التجربة والحكمة العملية التي بنى بها الانكلوساكسون مؤسساتهم الدمقراطية الناجحة . فالفرنسيون يؤمنون بالصيغة القانونية المحكمة

اكثر من الايمان بالعادات والتقاليد وروح النظام وفضيلة المواطن . من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٩٤٩ غيرت وبدلت فرنسا خمسة عشر نظاماً ودستوراً ، وحذونا حذو الفرنسيين فاصطنعنا عدة انظمة وثلاثة دساتير في عمرنا القصير ، اي في اقل من ربع قرن .

ج - وهل انا في حاجة الى ان اذكّر هذه النخبة ان الشخصية الطاغية على تاريخ فرنسا هي شخصية نابليون ، الجندي الذي مهدت لسيفه الثورة وحمله الانقلاب الى العرش .

رابعاً - وسبب آخر من اسباب اضطرابنا هو انتشار العلم بدون سياسة مرسومة .

أ - فقد انتشر العلم دون ان يرافقه تحسن في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وتوسعت الدولة في افتتاح المدارس قبل ان تقدم الخدمات الصحية والاجتماعية وقبل ان تعمل على رفع مستوى الحياة الاقتصادية ، فأدى هذا الى عدم التوازن والى المذاهب المتطرفة وعدم الاستقرار الاجتماعي . ان من حق كل مواطن ان يتعلم العلم ومن واجب الدولة ان تيسر له العلم مجاناً بحيث يبلغ منه ما يستطيع ، ولكن من واجب الدولة ايضاً ان تضمن له مع العلم الغذاء والكساء والدواء والمأوى وحياة مادية كريمة حتى يجيء نموه متكاملاً من شتى الجهات .

ب - وانتشر العلم افقياً لا عامودياً ، فلم تستهدف المعارف السورية تخريج نخبة ممتازة تصلح للقيادة والتوجيه

في شتى الميادين وانما اخرجت اكبر عدد ممكن من اشباه المتعلمين .

ج - اهتمت المعارف بالثقافة الحرة للجميع واهملت التعليم المهني والزراعي والصناعي حتى انها انتزعت ابناء القرى من حقولهم ومزارعهم والقتهم في تجاهيز المدن ، عوضاً عن ان تحمل العلم النافع الى قراهم .

د - استطاعت المعارف ان تعلم القراءة والكتابة وبعض العلم ، ولكنها لم تستطع ان تربي المواطن السوري الصالح للعيش في الدولة السورية . فقد تبارى اكثر المعلمين في تعداد مساوىء المجتمع السوري ونقائصه امام الطلاب ، ولم يعنوا باظهار القيم الايجابية التي فيه ، ولم يرسموا صورة شاملة متوازنة تظهر فيها المحاسن والمساوىء والظلال .

وفتح الطالب عينيه على مجتمع قيل له انه قبيح كله وشر كله فلم يتعلق قلبه بالمجتمع القائم وانما نقم على هذا المجتمع والفساد المجسد واتجه الى تهديمه لبناء شيء جديد .

خامساً - واخيراً شخصية العربي وخلق السوري .

فالعربي بطبيعته فردي النزعة قوي الفردية ليس من السهل ان يضبط ويحكم ويقاد . وقد عقد ابن خلدون في المقدمة فصلا رئيسياً شهيراً في « ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة ، والسبب في ذلك انهم بخلق التوحش الذي فيهم اصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة » .

وكتب جمال باشا في مذكراته : « ان سوريا اقليم كالبارود ، قابل للالتهاب سريع الاشتعال » .

وسجل لورانس في اعمدة الحكمة ان « السوريين من الطفولة متمردون يطيعون آباءهم بعامل الخوف فحسب ، ويطيعون حكوماتهم بعد ذلك بالعامل ذاته . كلهم يريد شيئاً جديداً ، ومع سطحيتهم وتمردهم يجري حب السياسة ، وهي علم من السهل على السوري ان يخوض فيه ولكن من الصعب ان يتقنه . وكانوا دائماً يضيقون بحكامهم . كذلك كان كبرياؤهم » .

هذا العربي السوري ، الفردي ، القلق ، المتمرد ، الحامل في كيانه اوزار امته واثقال ماضيه ، لم يكن من السهل ان يتحول في بضع سنين الى مواطن ضابط لنفسه ، خاضع للقانون . كان لا بد لهذا الانسان من ان يتعثر وتتعثر معه الدمقراطية السورية الناشئة .

***

وبعد فماذا علمتنا العثرات في السنوات الاخيرات ؟

اولاً – اكتشفنا اولاً ، وارجو ان نكون اقتنعنا بالتجربة القاسية المريرة ، أن الانقلاب Coup d'Etat ليس طريقة سليمة للاصلاح . فالانقلاب يثير مشاكل اخطر بكثير من المشاكل التي تصدى لحلها اول الامر ، ويفتح ثغرات في الدولة قد تؤدي الى نهاية الدولة . الاصلاح الحقيقي يبدأ مع الفرد في عقل الفرد وقلب الفرد . والمصلحون الكبار في التاريخ والانبياء والرسل وانبل الزعماء

لم يحاولوا الاستيلاء على الحكم بعد منتصف الليل ، وانما عملوا في وضح النهار ودعوا الناس الى الحق والخير . سقراط ، بركليس ، المسيح ، لنكولن ، وغاندي ، لم يلجأوا الى القوة والقهر في اصلاح الامم وسياسة الناس . ومحمد دعا اصحابه الى الجهاد الاكبر - جهاد النفس .

ثانياً - وتعلمنا ، ارجو ان نكون تعلمنا جميعاً وحصلت عندنا القناعة ، بان حكم العسكريين لا يفيد قضية الحكم وانما يعرض الدولة للفوضى والاضطراب ، ويسيء الى الجيش نفسه اذ يضعف معنوياته ويصرفه عن عمله الطبيعي وعما هو ميسر له .

قلت انه يضعف القوى المعنوية في الجيش واحب ان اقف قليلاً عند هذا المعنى . فالقوى المعنوية كما يبين « Clausevitz » في ثلاث :

١) مواهب القائد .

٢) فضائل الجيش العسكرية .

٣) شعور الجيش الوطني .

والفضائل العسكرية ثلاث : الشجاعة ، والطاعة والانضباط ، وروح الجماعة Esprit de corps . واعتقد ان اشتغال الجيش بالسياسية يحطم هذه القوى المعنوية والفضائل العسكرية .

١ - فالضباط الكبار المشتركون في الانقلاب يقضي بعضهم على بعض ويبقى في الميدان اكثرهم مغامرة ، وبذلك يخسر الجيش خير القادة وافضل المواهب .

٢ – والاشتغال بالسياسة ينافي العمل العسكري واتقانه والامتياز فيه وتنمية البأس بالعادة والمران .

٣ – الجيش المشتغل بالسياسة تنعدم في صفوفه الامرة والطاعة والتسلسل والانضباط فيقدم الملازم على الرئيس في النفوذ ، ويتجرأ الرئيس على المقدم ، ويسخر العقيد من الزعيم ، وتفقد المراتب والرتب معناها البعيد ، ويفقد الجيش نظامه .

٤ – الجيش الذي يشتغل ضباطه بالسياسة ويتوزع افراده على احزاب مختلفة واهواء شتى يفقد روح الجماعة ويضطرب فيه الولاء ، ولا يكون وحدة مقاتلة في الميدان .

ثالثاً : وعلمتنا التجارب ايضاً ان الحكم العسكري ينتهي بحكم الفرد المطلق . فالدكتاتورية الجماعية ما هي الا مرحلة عابرة يمر بها الدكتاتور ووقت يستغله الاقوى للقضاء على اخوانه في المغامرة حتى ينفرد بالمجد والسلطان . وبتعبير بول فاليري : « إنه يلغي من الوجود او يبعد ويقصي كل من لا يتخلى له عن طموحه الدكتاتوري [١] » .

ولست في حاجة الى تبيان مساويء الدكتاتورية فقد شاهدناها مستترة وشاهدناها سافرة وكرهناها على الحالين . وانما اكتفي بالقول ان الحكم الوحيد اللائق بالانسان الكريم هو الحكم الدمقراطي النيابي القائم على الشورى وعلى تغليب ارادة الجماعة بعد النقاش الحر . اننا لم نمقت شخصاً معيناً ، وانما مقتنا الحكم المطلق على الاطلاق .

---

(١) Il élimine ou isole tous ceux qui ne lui abandonnent point leur propre élément dictatorial

Paul Valéry

يقول Brutus للجمهوريين الاحرار المتآمرين على القيصر :

(نحن انما نحارب « روح قيصر » وليس في ارواح البشر دماء ، وحبذا ان نقبض « روح قيصر » من غير ان نفتك بجسمه) .

رابعاً - وذكرتنا التجارب ايضاً بالرجوع الى مبدأ الاختصاص في الاعمال ، فالدولة جسم عضوي له رأس واطراف ، والجسم كله يضطرب اذا قامت اليد بعمل الدماغ او حاولت المعدة ان تؤدي وظيفة الرئتين .

رجال السياسة للسياسة ، والموظفون لواجباتهم في دوائر الدولة ، والضباط والجنود للذود والدفاع ، والطلاب للدراسة والتحضير والمستقبل .

خامساً - وعلمتنا الأيام ان الحياة الكريمة في النظام الديمقراطي لا تستقيم لنا الا بتوفر شرطين اساسيين :

أ - ان يكون هناك قواعد عامة يرضاها المواطنون جميعاً ويعملون ضمن اطارها ويختلفون بعد ذلك ضمن الاطار الكبير . سم هذه القواعد اصولاً او دستوراً او ميثاقاً او قوانين ، المهم ان توجد مباديء اساسية متفق عليها بين ابناء الوطن الواحد حتى يمكن العيش في الوطن الواحد .

ب - ان يقبل الجميع في حل الخلافات الطبيعية بقاعدة اساسية هي احترام قرار الاكثرية واطاعة حكم الاكثرية حتى تتغير قناعة الناس وتصبح القلة كثرة فتحكم

بدورها . انه لا يجوز ان تفرض قلة قليلة رأيها وحكمها على الكثرة الكثيرة بحجة انها تستطيع ان تثير الشارع . اذا كنا وطنيين حقاً ومواطنين صدقاً فينبغي ان نلزم انفسنا بالعمل على تلك القاعدة ونحاول ان نكسب الاكثرية عن طريق الاقناع والحسنى واخذ الاصوات ، لا بالقوة والقهر والبأس الشديد .

هذا من حيث المبدأ العام الذي يقوم عليه المجتمع السياسي الحر ومن حيث اداة الشورى او آلة الاختيار . لكن هذا المبدأ لا يطبق وهذه الآلة لا تسير والديمقراطية لا تتحقق الا بخلق من الاخلاق ومزاج من الامزجة استطيع ان اصفه بالتسامح والتساهل والاعتدال والرفق . (ان الله يحب الرفق في الامر كله) .

فالمزاج العنيف لا ينسجم مع العمل الديمقراطي ولا يلائم الحياة الديمقراطية في شيء .

والتطرف في الآراء والمغالاة في المذاهب والنظريات تؤدي حتماً الى لون من الحكم المطلق . وقد درجت في السنوات الاخيرة نغمة الاحزاب العقائدية في البلاد حتى ظن الناس ان الاحزاب العقائدية هي وحدها التي تقوم على المبادىء والعقائد وانها وحدها الاحزاب . والواقع ان الاحزاب العقائدية [1] تتمسك بمبادىء ضيقة ونظريات

---

(١) الحزب العقائدي، كالحزب النازي الالماني والحزب الفاشي الايطالي، يتمسك بنظرية الحزب الاوحد في الدولة الواحدة ، ولا يسمح بوجود حزب آخر في الميدان .

محدودة وترى ان الجزء هو الكل وان ناحية من الحقيقة هي كل الحقيقة .

والأحزاب الديمقراطية في البلاد الاكثر ديمقراطية ليست احزاباً عقائـــدية . لا شك ان للحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة فلسفة عامة وللحزب الجمهوري فلسفة ايضاً ، ولا شك ايضاً في ان لحزب المحافظين في بريطانيا نظرات خاصة في الحياة والحكم ولحزب الاحرار فلسفة وكذلك حزب العمال .

ولكن المهم في الامر ان لا حزب من هذه الاحزاب يدّعي انه قبض على الحقيقة كاملة ليفرضها كامـــلة على الآخرين . انهم بملكة الحكم السليم عـلى الاشياء يعترفون بانهم بشر يعرض لهم من الخطأ والصواب ما يعرض لسائر الناس ، وانه من الخير ان يتداول اليمين واليسار الحكم حتى تسير سفينة الدولة في الوسط المعتدل الحكيم . والحياة ازمة مستمرة ولن يجد حزب حلاً نهائياً اخـــيراً لكل مشاكلها فهي في تغير دائم وتبدل مستمر . ثم ان الحياة اوسع من النظريات والمذاهب ، تأخذ منها جميعاً وتدع ، وتتغلب آخر الامر على انحرافـات النظريات وشطط المـذاهب .

هذه الحقائق عن الحياة وطبيعة الاشياء حرية بان تدعونا الى شيء من الاعتدال في التماس الاصلاح وطلب الكمال ، وشيء من التواضع في خدمة الاوطان ، والى شيء من التسامـح والتساهل مع سائر المواطنين .

قد تقولون هذه كلها ابحاث نظرية وعظات اخلاقيـــة، فماذا يجب ان نصنع الآن ؟ واي تدابير نتخذ واي مشاريع وقوانين وقرارات ؟ قيل لروسو : أانت ملك ام انت امير حتى تكتب في السياسة ؛ فاجاب : لو كنت اميراً لما اضعت وقتي في الكتابة ولكنت فعلت قبل ان اقول .*

* محاضرة القيت في النادي العربي بدمشق في ٣١ آذار ١٩٥٤

الرأي العام

•

ما هو الرأي العام ، اولاً ، وكيف يتميز عن الرأي الخاص ؟

وهل من فرق بين الرأي العام والشعور العام ؟

وهل الرأي العام ما تراه العامة دون الخاصة ؟

وفي أي الميادين يتحرك الرأي العام ويحدث اثره ويفعل فعله ؟

وكيف يكون التعبير الصحيح عن الرأي العام ؟

وهل الرأي العام قوة حكيمة خيرة يوثق بها ويعتمد عليها ، ام هو قوة لاواعية غير مسؤولة يجب ان ينظر اليها بحذر شديد ؟

لا يكفي ان يرى الناس رأياً حتى يولد « رأي عام »، ولا يكفي ان يعبروا عن هذا الرأي حتى يعرف اتجاه الرأي العام . فقد يحب الناس ويكرهون ، وقد تخطر لهم

الخواطر وتلوح لهم الامال ، وقد يتقدمون الى الاعلان عما احبوا وكرهوا واملوا وخطر لهم على بال دون ان يتحول هـذا كله او بعضه الى تيار جارف وقوة ذات خطر . المهم في الحياة العامة هو كثافة الرأي واندفاعه ومداه . فاذا تمسك قوم بقضية من القضايا وتحمسوا لها واتجهوا الى تحقيقها فهنالك رأي عام ايجابي واضح ، واذا ضاقت اقوام بامر من الامور ولم تستطع له صبراً واتجهت الى مقاومته فهنالك رأي عام سلبي واضح ايضاً .

فالرأي لا يكون رأياً عاماً الا اذا توفرت له عناصر شتى ، منها ما يتصل بصاحب الرأي ، ومنها ما يتصل بموضوع الرأي ، ومنها ما يتصل بكثافة هذا الرأي . فصاحب الرأي العام ليس فرداً واحداً او عدة افراد وانما الكثرة الكثيرة من الناس او « اكثرية الشعب » او « اغلبية الاصوات » بتعبير هذا الزمان . وموضوع الرأي العام هو الشأن العام او القضايا التي تتصل بحياة الجماعة وامنها وحريتها ومعاشها . فالمسائل العلمية الخالصة ليست عادة من القضايا التي يجري في مضمارها الرأي العام ، وقد ظلت الابحاث الذرية زمناً طويلاً بمعزل عن اهتمام الرأي العام حتى ادت التجارب الى صنع القنبلة الذرية والقائها على المدن الآهلة فنشأ في بلدان الغرب تياران قويان : تيار يؤيد استعمالها وآخر يستنكر ذلك . وما يزال الضمير الانساني مضطرباً امام هذه المشكلة الانسانية الخطيرة . اما كثافة الرأي فتعني ان تبلغ قناعة

الناس درجة من القوة تدفعهم دفعاً الى العمل .

ورغم ان الرأي العام هو بالضروزة الرأي الذي تعمم وتبنته اكثرية الناس الا انه فى نشأتـه الاولى يصدر عن فرد او عدد قليل من الافراد فيذيع ويشيع وينتشر اذا صادف هوى في نفوس الناس ، وبتعبير آخر ان ما يشكل رأياً عاماً هو اعتناق القسم الاكبر من الشعب لوجهـة نظر معينة ولعصبية ما او لمثل اعلى او لسياسة تقدم بها فرد او جماعة معنية بالامر ، مستعملة في ذلك وسائل الدعاية والنشر من صحف وكتب واجتماعات عامة واذاعات واتصالات شخصية مباشرة .

لذلك كان الحديث عن الرأي العام مرتبطاً آخر الامر بصانعي الرأي والقادة والموجهين . فاذا وجدت بلداً من البلدان ليس فيه رأي عام بالنسبة لقضاياه الحيوية فاقطع بان قادة الرأي في ذلك البلد قد اهملوا عملهـم الطبيعي وواجبهم الخطير . واذا وجدت بلداً يتخبط فيـه الرأي العام ويركب الشطط ويضل ضلالاً بعيداً فاعلم ان القادة والزعماء لم يفكروا تفكيراً جدياً مسئولاً بمشاكل قومهم ولم يوضحوا للشعب قضاياه ولم يقترحوا عليه الحلول ولم ينيروا امامه السبيل . فالمفكر او الزعيم او رجل الدولة لا يرضيه ان يصبح متسائلاً عن حالة الرأي العام ويمسى راصداً لاتجاهاته ، وانما يعمل على خلق التيارات فيـه ويوجه الرأي توجيهاً صحيحاً ويقوده الى الخير العام .

هذا من حيث تكوين الرأي العام وتسديد خطواته وبقي علينا ان نلم الماماً سريعاً بوسائل التعبير عنه .

ان هياج الدهماء وتظاهر الغوغاء وصخب الشارع ليس تعبيراً سليماً عن الرأي العام . وقد ابان « غوستاف لوبون » Gustave Lebon في كتابه (نفسية الجماهير) كيف تتحكم الغرائز والعواطف في الجمهور وكيف تذوب الشخصية الواعية في خضم الغوغاء وتضيع الارادة ويبطل التمييز . فالغوغاء قوة طائشة هدامة ، اما الرأي العام فشيء آخر . ولكي يكون الرأي العام اداة للتعبير عن الارادة العامة الواعية وجب ان تكون هناك احزاب تتقدم الى الناس بحلول شتى وسياسات ، فيقبل الناس على المفاضلة بين الحلول المقترحة والسياسات ، ويرجحون كفة على كفة في ميزان الخير العام ، ويختارون رجال الحزب الذي يمثل السياسة المفضلة . هذه هي الطريقة الفعالة السليمة للتعبير عن الرأي العام تعبيراً مضطرداً قوياً . فالحزب هو الرأي المنظم ، والحزب الغالب او الخارج منتصراً من انتخابات حرة هو الرأي العام السليم الفعال .

واذن فليس الرأي العام وهماً من الأوهام او « اكبر كذبة في العالم » كما ادعى كارلايل .

وانما هو قوة حقيقية اذا ضبطت ونظمت واستنارت واستقام لها التعبير فهي جديرة بان تكون الحكم الاخير في

القضايا العامة والحكم المصيب .

قد يخطيء الرأي العام ، ما في ذلك شك ، و كذلك يخطيء الفرد الممتاز وتخطيء القلة المختارة . ولكن الذي من مصلحته ان لا يخطيء وان يصحح الخطأ اذا وقع فيه هو هذه الكثرة الكثيرة من الناس ، لان الخطأ يصيبهم جميعاً ويضر بهم . والرأي العام المستنير هو الضمانة الوحيدة لحرية الشعوب وعدل الحكومات . واستنارة الرأي العام تتوقف على امرين اثنين بالغي الاهمية :

١ — المستوى العام لذكاء الشعب وتربيته .

٢ — امانة القادة واخلاص الهيئات المكونة للرأي ، مثل الصحف ومكاتب الاحزاب ومنابر الجمعيات واذاعة الدولة او الشركات .

ولما كان اساس الحكم الديمقراطي هو رأي الشعب فلسنا مخيرين في اعمال الرأي العام او اهماله سواء كثر صوابه او قل . الرأي العام في النظم الحرة هو المرجع والمرجع الاخير ، لذلك كان علينا ان نثقف هذا الرأي ونتعهده ونبسط له القضايا ونخلص له النصح والارشاد وندفعه في مجاري الحق والخير .

إن الذين لا يحترمون الرأي العام هم الذين لا يؤمنون بالشعب ولا يثقون بمقدرة الفرد العادي على تفهم الامور العامة . اولئك هم اصحاب النزعة الارستوقراطيه المتعالية . اما الديمقراطيون الاحرار فانهم يثقون بالشعب ويؤمنون

بفهم الرجـــل العـادي الذي يأكل الطعـــام ويمشي في الاسواق (The Man - on - the street) ، حتى ان جفرسون ذهب الى الاعتقاد بان لدى الشعب حساً دقيقاً يعرف بـه خدامه الحقيقيين ويوفق به الى الخير والصواب على الاجمال . وكان تاليران ، وهو النبيل العريق ، يقول : « اني اعرف من هو اكثر حكمة من نابليون وتاليران وجميع الوزراء في الحاضر والاستقبال ، الا وهو الرأي العام » . واذا كان في هذين القولين شيء من غلو فان بركليس الحكيم وضع الامور في نصابها حيث قال مفاخراً بشعبه الآثيني : « واذا كان المبدعون في السياسة قليلين فانا جميعاً نحسن الحكم على السياسات » . وهـــذا بالضبط ما ينتظر من الشعب حين يكوّن رأياً عاماً . *

* جواب على سؤال طرحته « الانشاء » ونشر فيها في ٩ نيسان ١٩٥٤ .

وحدة الصف

•

فخامة الرئيس ،

سادتي ،

في زحمة المذاهب والرسالات ، في صخب الآراء واصطراع النظريات ، في برج بابل او في بابل الشام ، يتعالى ، كالنور فوق اللهيب ، صوت مدو نبيل يدعو الناس الى وحدة الصف ، ويطل من عل على هذا المضطرب الواسع وجه الرئيس بجلاله القديم وهدوئه المهيب وكأنه مشرف من جبل الاولمب يستدرج الناس الى جو المرتفعات .

ومن خصائص الدعوات الكبيرة انها تأتي عامة شاملة خالية من التعقيد بريئة من التفصيل ، لها بساطة الفكر العظيمة وبداهة الحقائق الكبرى ، وللمؤمنين بالدعوة بعد ذلك ان يفصلوا القول فيها وان يتأولوها وان يحولوها الى وقائع واحداث .

فليسمح لي فخامة الرئيس ان اقدم بين يديه تأويل

هذه الدعوة الى وحدة الصف . انه تأويل شخصي واجتهاد ورأي من الآراء .

اني افهـــم من دعوة الرئيس الى وحـــدة الصف حصول الاجماع على امور اساسية بالغة الخطر بالنسبة لبقاء الدولة السورية .

١ – افهم من دعوة الرئيس ، اولاً ، انه يريد ان تطوى صفحات السنوات الاخيرات وان نبتدىء بصفحة جديدة بيضاء ، وكأني به يردد ما قال علي بن ابي طالب لبعض اهل العراق : « قد كانت امور لم تكونوا فيها محمودين . اما اني لو اشاء ان اقول لقلت ، عفا الله عما سلف . » عفا الله عما سلف – موقف من الماضي كريم ، وموقف حكيم ، اذ لا يجوز ان تفنى جهود الناس في محاسبة الماضي وفي تبادل الاتهام . اذا انتصب الحاضر لمحاكمة الماضي فقد نضيع المستقبل . دعـــوا الماضي للعبرة ، دعوه للتاريخ ، واتركوه بين يدي الله . المهم انقاذ الحاضر وبناء مستقبل افضل .

٢ – وتقوم دعوة الرئيس ، ثانياً ، على افتراض سمح جميل الا وهو ان جميع ابناء هذا الوطن مواطنون كرام متساوون في الحقوق والواجبات ، قد يكون فيهم المتعقل والمتهور ولكنهم جميعاً مواطنون كرام ووطنيون مخلصون يريدون الخير لهذه البلاد . واحترامهم واجب وحبهـــم مفروض على كل مواطن . لذلك كانت دعـــوة الرئيس

موجهة الى جميع المواطنين لا يكاد يستثني منهم احد ولا يؤثر بعضهم على بعض .

٣ – ويدخل في دعوة الرئيس الوصول الى وضع في الدولة سليم ، والدولة كالجسم ، والجسم الصحيح هو الذي يقوم كل عضو من اعضائه باداء وظيفته الطبيعية لا يتعداها . وقد اعتبر سقراط ان مراعاة الاختصاص في الدولة هي العدالة بعينها : « اذا تقيد كل منهم بعمله الخاص المنوط به معرضاً عما لا يعنيه ، في دوائر الصناعة والحرب والحكم ، فذلك عدالة وبه تكون المدينة عادلة . »

هذا اصل من الاصول به تكون الدول المستقرة الفاضلة وبدونه لا تكون . وهو مبدأ اساسي لا يصح ان تختلف فيه الاراء وانما ينبغي ان ينعقد عليه اجماع الناس .

٤ – ومبدأ آخر يجب ان يجمع عليه المواطنون ويكونوا فيه صفاً واحداً هو احترام قاعدة الاكثرية في سير الحكم . من المسلم به ان الامة هي المرجع الاول والاخير ، وان السبيل الى معرفة رأي الامة هي الانتخابات الحرة النزيهة ، وقاعدة الحكم الديمقراطي هي القبول بحكم الاكثرية الى ان تتغير الاكثرية . ليس من الديمقراطية في شيء ان تفرض قلة من الناس ، مهما يكن امتيازها ، رأيها على كثرة الناس . للقلة ان تدعو إلى فكرتها بالتي هي احسن وان تحاول بجميع الوسائل المشروعة وضمن اطار القوانين ان تكسب الرأي العام وتصبح بدورها

اكثرية مطاعة . ولكنها ما دامت اقلية فيجب ان تطيع راضية حكم الاكثرين . هذه القاعدة من بديهيات النظام الديمقراطي ، ويجب الا نختلف على البديهيات . وقد جرت على احترامها وتطبيقها الانسانية الراقية في المشرق والمغرب ، ولا يمكن ان يستقيم لنا العيش الحر الكريم بدون احترامها .

واذا لم تجمع الاحزاب على قبولها والعمل بها فان الدولة تتحول الى مسرح واسع لحرب اهلية باردة او حارة تؤدي آخر الامر الى انهيار الدولة وقد تؤدي ، على افضل الاحتمالات ، الى استئثار حزب واحد في الحكم واستبداد فرد من الافراد .

٥ - ومبدأ آخر ينبغي ان يسلم به المواطنون والاحزاب جميعاً ، وهو ان التماس الاصلاح لا يكون بالعنف والقوة القاهرة والبأس الشديد ، وان تغيير الحكومات لا يكون بالاستيلاء المفاجيء على مرافق الدولة بقبضة من الرجال بعد منتصف الليل . من طلب الحكم وقصد الى شرف الخدمة العامة فليدخل الحكم من بابه الكبير - باب الانتخابات الحرة ، وليتقدم بخشوع الى محرابه المقدس - مجلس الامة وليرتفع في شهامة وكبر الى الرئاسات بثقة المجلس وتأييد الشعب .

اذا اعتسف الناس الوعور الى العلى
سلكنا لها القصد السويّ المعبّدا

٦ – ولنكن صفاً واحداً مرصوصاً في تعزيز المعاني الكريمة في هذا الوطن، ولتتخلل اعمالنا العامة روح الوقار والاجلال والاحترام، فلا يسفه بعضنا بعضاً، ولا نهدم بايدينا رجالنا وساستنا وقادتنا ورموزنا وقيمنا .

اي وطني لا يتمنى ان يزخر وطنه الصغير بالف عظيم والف رجل دولة والف عبقري ؟ قادتنا وزعماؤنا – زعماء كل الاحزاب وقادة جميع المدارس – وادباؤنا وعلماؤنا وشعراؤنا ومفكرونا ورجالنا الافذاذ في كل ميدان، هؤلاء رأسمالنا الادبي وثروتنا الكبرى وعنوان حضارتنا وفخر دولتنا، وهم صروحنا الشامخة يرفعها لذكرنا التاريخ، فلا تهدموا بالله تلك الصروح .

وحدة الصف تكون بالنسبة الى هذه المعاني جميعاً . فليتعاهد المواطنون والاحزاب على ان يقيموا وضعاً طبيعياً سليماً في الدولة قاعدته الاختصاص في اجهزة الدولة جمعاء، وليلزموا انفسهم باحترام قاعدة الاكثرية واطاعة القوانين، وليعاهدوا الله على ان لا يلجأوا بعد الان الى القوة والقهر وقلب الاشياء في طلب الحكم ومحاولة الاصلاح .

اما فيما عدا ذلك وضمن هذا الاطار الكبير فلتختلف الاحزاب ما شاءت وما شاء لها الطموح . ومن الطبيعي ان يختلف الناس في آرائهم ومذاهبهم، ومن الطبيعي ان تختلف امزجة الرجال، وان يتنافس الطامحون الى خدمة

الاوطان تنافساً مشروعاً كريماً . وليس معنى وحدة الصف ان تحل الاحزاب نفسها او ان تتخلى عن شخصيتها ومناهجها ومآثرها .

انا نقدر دور الاحزاب في الدولة الحديثة ونعتقد انه من الخير ان توجد احزاب مختلفة تتناظر ضمن الاطار الكبير المقبول وتتسابق الى الخير . تصوروا ، أيها السادة ، بلداً ليس فيه سوى احزاب اليمين واهل الحفاظ على القديم ! ان ذلك البلد لا يلبث ان يغدو متحجراً متأخراً متخلفاً عن ركب الحياة . وتصوروا بلداً اخر ليس فيه سوى احزاب اليسار واهل التغيير والتبديل والتجديد . ان ذلك البلد يصبح ويمسي في قلق دائم واضطراب وفتن وثورات ويغدو بلداً متهوراً متعثراً . الدولة الصحيحة بحاجة الى يمين ويسار ، الى الحفاظ على القيم القديمة والاخذ بالجديد النافع . ومن عادة الاحزاب ان تغلو في دعواتها وتسرف على نفسها وعلى الناس ، اما الحياة فتأخذ من اليمين ومن اليسار ، وتتغلب على انحراف المذاهب وشطط النظريات ، وتجري في وسط حكيم معتدل .

يسألونك يا سيدي عن البرنامج والمنهاج ، وقد جئتهم بالشرط الاساسي لبقاء الدولة السورية ورسمت لهم الدائرة الكبرى التي تحتضن البرامج والاحزاب وتضعها في مكانها المقدور من نظام الاشياء .

وبعد فليست البرامج كتباً منزلة ، ولم تهبط على احد

من السماء في لوحها المحفوظ . البرامج آراء ومشاريع واجتهادات يضعها الانسان ويطبقها الانسان ويعدلها الانسان لخير الانسان . اما ان يظلم الناس ويضطهد بعضهم بعضاً ويذوق بعضهم بأس بعض ويقتتلوا ويتفانوا في سبيل برنامج مكتوب فليس من الحكمة ولا من الوطنية في شيء . يوجه الحقد والنقمة والعداء الى اعدائنا وراء الحدود، وتراق الدماء كريمة في الدفاع عن ارضنا ومقدساتنا ، في سبيل حريتنا و كرامتنا ، في سبيل اخواننا واهلنا وابناء قومنا . كل ما عدا ذلك باطل ، كل ما عدا ذلك حرام .

وما قيمة البرنامج والمنهاج اذا لم يكن منحدراً من فلسفة جامعة او فكرة شاملة او رؤيا جليلة في عقل جبار. انها تبقى بتعبير هاملت : « كلمات ، كلمات ، كلمات . »

وعظمة الرجل لا تقاس بما يقدم من مواد وبنود ونصوص يستطيع اي كاتب ان يقدم مثلها ، وانما تقاس عظمة رجل الدولة بتكييفه المباشر لمجرى الاحداث الكبار، وبتأثيره البليغ - تأثير شخصيته وتأثير افكاره على معاصريه وعلى اجيال كثيرة من بعده .

اقول قولي هذا وانا ارى ان وجود الاحزاب الضابطة لنفسها الصادقة في سعيها العام ضرورة للحكم الديمقراطي . وانما يجب ان ننظر الى الاحزاب على انها واسطة واداة لخدمة الوطن لا غاية في حد ذاتها . ويجب ان يجري التناظر بينها بالرفق واليسر والخلق الكريم : « ادع الى

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن . » كما يجب ان نعي بان الدافع الحيوي لوضع البرامج وسعي الاحزاب وخدمة الاوطان انما هو الحب العظيم . فالوطنية في التحليل النهائي ليست سوى حب الوطن وحب المواطنين جميعاً حتى الخصوم من المواطنين ، والشعبية هي الثقة بالشعب الطيب والارتياح اليه ، والاشتراكية هي حب الخير للناس اجمعين . ولقد انتهيت الى ذكر المحبة لاعتقادي بان المحبة للوطن وللمواطنين جميعاً كامنة وراء دعوة الرئيس الى وحدة الصف ودافعة الى سعيه العام . وها اني مقتبس لكم من بيان رسول من رسل الانسانية رأى النور العجيب على طريق دمشق ، في ليلة مباركة قد تكون مثل هذه الليلة :

« إن كنت اتكلم بألسنة الفلاسفة والانبياء والمصلحين وليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن وصنجاً يرن . وان كانت لي بلاغة واعلم كل علم ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً . وان اطعمت كل اموالي واسلمت جسدي حتى احترق وليس لي محبة فلا انتفع شيئاً . المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تغضب ولا تنتفخ ولا تطلب ما لنفسها ولا تظن السوء . ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق . وتحتمل كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وترجو كل شيء ، وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط ابداً . »*

* خطاب ألقي في حفلة اقامها السيد محمد العايش تكريماً لفخامة السيد شكري القوتلي في ٢٨ آب ١٩٥٤ .

طريقة الانبياء

•

زماننا هذا زمان كثرت فيه الدعوات الملحات الى الاصلاح ، وتعددت المحاولات الجريئة لاختصار الطريق الى الفراديس الارضية . وظهر فيه دعاة مختلفون وقادة وساسة وزعماء ، كل له مذهب وكل يدعو الى سبيل . وقد يكون من المناسب لزماننا هذا ولخير امتنا ، وتحية لمولد الرسول العربي الكريم ، ان نذكر في طرق الاصلاح المقترحة على البلاد طريقه الانبياء .

١) النبي ، وهو سيد المصلحين ، يبتدىء من البدء ويعمل في الاساس . النبي يبدأ بنفسه ، يصلحها قبل ان يتصدى لاصلاح العالمين . ينزهها عن بعض ما لا يشينها ، ويتسامى بها ويطهرها تطهيراً ، كي يستطيع ان يشاهد الحق وينفذ الى طبيعة الاشياء . ذلك هو الجهاد الاكبر كما علمنا محمد بن عبدالله .

٢) ولا بد في تهيؤ النبي لعمله الخطير من ان يعتزل ويبتعد ويتخفف من اثقال الحياة العادية الرتيبة — لا بد له من عزلة وارتداد قبل العودة والرجوع . يقول في ذلك آرنولد توينبي : « ان الشخصيات المبدعـــة في التاريخ عندما تسلك الطريق الصوفي تخرج من ميدان العمل لتدخل في حالة التأمل والنشوة الروحية ، ومن نشوة الروح تعود الى الميدان لتعمل هذه المرة على صعيد اعلى جديد . »

موسى يرتقي طور سيناء ليناجي ربـه ويتلقى الوصايا ويتلقى الناموس . عيسى يقضي في الخلاء البعيد اربعـــين يوماً قبل ان يعود بقوة الروح لاداء الرسالة .

ومحمد يجاور في حراء من كل سنة شهراً ليرجع بنبأ من انباء السماء : لقد حبب الله تعالى اليه الخـلوة فلم يكن شيء احب اليه من ان يخلو وحده — كما يروي لنا ابن هشام .

في تلك الخلوة النقية تحاول النفس الصافيـــة ان تتصل بالملأ الاعلى ، في صمت الجبل او في هـدأة الصحراء يرى النبي الحلم العظيم والرؤيا الصادقة تجيء كفلق الصبح .

٣) هكذا يتجه النبي بالحب والتأمل الى الله قبـل كل شيء ولا يغشى دنيا الناس الا بعد ذلك — بعد ان يكون قد مر بتلك التجربة الروحية العميقة المهيئة للعمل .

ومصلحو الزمن الاخير من يناجون ! وعـلامَ يعولون ؟ واين يتجهون اول ما يتجهون ؟ الى الشارع ، الى اعمدة

الصحف ، الى منابر الاحزاب ! لقد زعموا الشارع ومجدوه وجعلوه قاضياً ونصبوه حاكماً مطلقاً . ولست اعني بالشارع فئة من الناس . الشارع حالة نفسية من الحـالات ، فانا الواقف امامكم عندما اشترك في مظاهرة ويسري فيّ تيار الجماهير الصاخبة اصبح قطعة من الشارع ويسودني ما يسود الجماهير ، فيتعطل العقل وتتحكم العواطف والغرائز . لقد درس هذه الظاهرة غوستاف لوبون في كتاب اصبح من الكتب الكلاسيكية « النهجية » على رأي علامتنا الاستاذ العلايلي .

اني لأتساءل جاداً مخلصاً وفي كثير من اللهفة والاشفاق: اين يجري البحث عن الحقيقة في بلاد الشام ؟ اين تدرس قضايا الروح وقضايا العقل ومشاكل الاجـتماع والسياسة والاقتصاد بروح التجرد والاخلاص ؟ هل نعود طلابنا وهم على مقاعد الدراسة ان يبحثوا عن حقـائق الاشياء في كل علم ، في كل فن ، في كل ميدان ؟ هل ينقطع اساتذتنا الى العلم والبحث العلمي في حقول المعرفة جميعاً ؟ وهـل يلتمسون الحلول السليمة لمشاكلنا الحقيقية بعيدين عن صخب الشارع وحساب الربح والخسران ؟ اني اترك لكم هـذه الاسئلة بدون جواب ، اتركها للتمني وللايام .

٤ – ولا يكتفي الرسول بالرؤيا الصادقة ، انه مدعو الى اعلانها مضطر الى ابلاغها مهما لقي في ذلك من الخلاف والاذى ومهما اعترضت طريقة المغريات والعقبات . لقـد

سلطت قريش على الرسول سفهاءها فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ماض في تأدية الرسالة مظهر لامر الله لا يستخفي به . وحاول رؤساء قريش اغراء الرسول وانتدبوا عتبة بن ربيعة ليفاوضه ويفتنه ويصرفه عما هو فيه ، وجاء عتبة يقول : يا ابن اخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً ، وان كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع امراً دونك ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ؛ فيجيبه الرسول : « ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا . »

ماذا تستطيع قريش والعرب والدنيا باسرها ان تقدم لرسول .

٥ - ولعل ابلغ اعلان للرسالة هو ان يكون الرسول في ذاته عنواناً كبيراً لها ومثلاً حياً لما يدعو اليه الناس . ان اشعاع فضائل النبي في صمتها البليغ يحدث في النفس ما لا يحدثه جمال الخطاب وصدق البيان ، وهذا هو معنى « المثل الصالح » - مثل حياة نقية . وسر الشخصية الصوفية في وجودها لا في اقوالها وما تأتي من الاعمال وما تدع. ان مجرد وجود النبي دعوة للاقتداء والحاح في الدعاء وتحد لكل ما هو دونه رفعة وسمواً .

في كل زمان وفي كل بلد يتصدى للاصلاح كثيرون وقليل هم الصالحون . ولقد يستسهل امرؤ الموت في سبيل مثل اعلى ومبدأ قويم ، اما ان يجسد المثل ويعيش المبدأ يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعـــة فذلك لعمري هو العسر العسير والمشقة ما بعدها مشقة والجهاد اكبر الجهاد .

٦ - والنبي لا يتناول العالم الخارجي ونظام الاشياء في الدرجة الاولى ، انـه يتوجه الى اعماق النفس البشرية ، يحرك فيها انبل نزعاتها ويحولها بتأثيره الشخصي المباشر الى شخصية جـديدة على صورة النبي لتشارك النبوة في انشاء عالم ادبي جديد . ولعلكم ذاكرون كيف غدا اولئك النفر من الجاهليين ابطالاً وشهداء وصديقين وخلفاء راشدين . ان محمـداً بفعل النبوة وتألق الروح استطاع ان يكوّن من قوم مهملين في الصحراء منسيين جيل بطولة وهدى قل ان تنجب مثله الايام . واستطاع ان يؤلف من تجار قريش ومن رعاة الغنم امة فذة تسعى وراء الفكر الكبيرة وتهيم ، وتتخذ العالم الواسع مسرحاً لعزمها وهديـــا ، فهي في الهند وهيَ في الاندلس في اقل من مئة عام ، كل ذلك بايمان رجل واحد على خلق عظيم .

هذي بعض صفات الرسول ، ولكن قد يكذب النبي الصادق اول الامر ، وقد يُضل الناسَ مُضلٌ الى امد غير قصير . فكيف نميز النبي من الدعي ونفرق بين الرسالة والانتهاز ، بين دعوة الاصلاح وشهوة الوصول ، بـــين

الحق والباطل ، بين الزبد وما ينفع الناس .

اولاً ، يخرج النبي على الناس بقانون اخلاقي كامل ويقدم صورة فاضلة لعالم افضل رآه وعلق به واعتزم تحقيقه بعون الله . وان هدم النبي بعض القديم وغيّر بعض المعتاد فانما يهدم ليرفع بناء اعلى واكرم ، انه ابعد الناس عن السلبية القاتلة والتدمير ، فالنبوة عمل ايجابي وقوة مبدعة وخير وبركة للناس اجمعين .

فاذا رأيتم رجلاً يدعو للاصلاح ليل نهار ويبدد في الليل والنهار كل ما في بلاده من تراث ومؤسسات وقيم ، ولا يجد ما يبقي عليه ، ولا يقدم صورة عن عالمه الافضل ورؤياه ، فاعلموا انه غير صادق في دعوى الاصلاح وانه وصولي ضئيل .

ويدل على النبي الهادي والمصلح الحقيقي ، ثانياً ، الروح التي ينشد بها الاصلاح فاذا دعا الى مذهبه بالتي هي احسن متواضعاً متسامحاً متعففاً ، واغضى عن كثير وصبر على كثير وعفا واستغفر لقومه وقال في اشد لحظات المحنة والبلاء (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) واذا احبهم على ضلالهم ، واحبهم على الهدى ، واحبهم حتى الموت من اجلهم فهو صادقٌ وهو نبي . اما الحاقدون الناقمون ، الممتلئة نفوسهم غيظاً وكيداً وعنفاً ومرارة ، هؤلاء - يعلم الله - ليسوا بصالحين ولا مصلحين ، والمبادىء بين ايديهم والمثل على ألسنتهم وتحت اقلامهم سلاح آخر

من اسلحتهم في صراع بربري وطموح جارف لا يبقي ولا يذر .

ما الذي يجري ببعض النفوس الكبيره الى الخير ويسوقها الى الاصلاح ؟ اعتقد ان (برغسون) كان صادق الوحي حين رأى ان « الدافع الحيوي » يغدو في تلك النفوس « دافع حب » . ولا يمكن ان يرافق دافع الحب عنف ومرارة وكبرياء .

وهناك محك ثالث لا يخطيء ابداً وهو النظر الى اتباع المصلحين ونتائج دعواتهم وآثارهم الحسان — من ثمارهم تعرفونهم — اهناك مصلح ؟ أهناك زعيم ؟ تعالوا معي نكتشف امره : اي نوع من الرجال يخرج من مدرسة هذا المصلح او ذاك الزعيم ؟ اي نماذج انسانية ؟ اي مواطنين للدولة ؟ اي اخلاق ؟ هل يثير غرائز الدهماء ام يبعث انبل ما في قلب الانسان ؟ انا لنعرف عظمة الرسول وهداه من صحابة الرسول ، اولئك الذين استطاع ان يقول فيهم بحق : « اصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وكأني بكم تقولون : الم ينقض عهد النبوات ! اذا كان عهد النبوات قد انقضى فان من الزعامات الادبية الرفيعة ما يقترب اقتراباً ويدنو دنواً ويعبق بنفحة روحانية من النفحات . زعامة غاندي مثلاً ، وقديماً حياة سقراط . واكاد اقول بان الزعيم الروحي وان رجل الدولة العظيم

هو معلم لقومه وراع صالح ، وهو الذي يرفع حياة قومه المعنوية ويرقى بمستواها الروحي ويدفعها لكل جليل نبيل عظيم من الامر .

يقول سقراط لكاليكلبس وهو سياسي معاصر له : « والآن يا صاحبي ما دمت قد بدأت تصبح سياسياً بارزاً وما دمت تأخذ عليّ اني غير سياسي ، ليسأل احدنا الآخر بعض الاسئلة . ماذا تقول في جعل المواطنين افضل ؟ او حدث ان كان رجل آثماً او ظالماً او احمق او سيء الادب فغدا بتأثيرك صالحاً ونبيلاً ؟ اوجد قط مثل ذاك الرجل بين المواطنين او الغرباء ؟ قل لي يا صاح اذا القى عليك شخص هذه الاسئلة فبماذا تجيب ؟ اي شخص اصلحت بحديثك ؟ ربما صنعت مثل هذه الاعمال في الحياة الخاصة قبل ان تتقدم الى الحياة العامة ؟ لماذا لا تجيب ؟ »

كاليكلبس : « انت مشاكس يا سقراط . »

سقراط : « كلا ، اني لا اسألك حباً بالمشاكسة بل لاني اريد ان اعرف على وجه التحقيق ما هو تفكيرك فيما يجب ان تكون عليه الحياة السياسية في اثينا ، واذا كنت تقصد حين تتقدم الى الحكم غاية غير اصلاح المواطنين . الم تسلم سابقاً بان اصلاح المواطنين هو واجب الرجل العام ؟ »

سيقول اقوام : هذا مفكر رجعي يرجع بنا دائماً الى حكماء اليونان ومتصوفي الهند وانبياء الشرق ... وهم

احرار فيما يعتقدون ، لكني اؤمن ايماناً اكيداً راسخاً بان العالم لم يصلح قط بالكيد والدهاء ، وانا لا نستطيع ان نبني المدينة الفاضلة بدون إلـه ، وان امورنا لا يمكن ان تستقيم بمجرد اصدار تشريعات ومراسيم وبلاغات تحمل ارقاماً . واؤمن ايماناً اكيداً راسخاً بانا لن نجد الامن والقرار بالعمل السياسي الضيق وحده ، العمل الاساسي المجدي ينبغي ان يكون عملاً اخلاقياً قبل كل شيء ، عملاً روحياً يقوم على الفضائل الشخصية لا على نظرات المصالح ، على الواجب لا على مجرد تحسين العيش .

ارجو الا يساء فهم ما اقول كما اسيء فهم ما قلت منذ بضعة شهور في هذا النادي ، فانا اطالب بالضمان الاجتماعي واطالب بتحقيق العدالة الاجتماعية باوسع معانيها . الخبز يجب ان يؤمن لجميع الناس والغذاء الكامل والكساء والمأوى اللائق والدواء والعلم بلا استثناء ، ويجب ان يرتفع مستوى الحياة الى اعلى الدرجات ، ما في ذلك شك ما في ذلك ريب ، ولكن الى جانب هذا كله يجب ان نذكر دائماً انه ليس بالخبز وحده يحيـا الانسان ، وان الانسان ليس حيواناً اقتصادياً هين الشأن . الانسان كائن روحي وبالحيـاة الروحية المثلى ، بالفضيلة ، بالمعرفة ، بالتضحية ، بانكار الذات وبالفداء يجد اعظم السعادة وخير الجزاء .

ونحن في هذا الشرق العربي ينبغي الا نتنكر لعبقرية

الشرق ، ففي هذا الشرق القريب جرى اتصال عجيب بين الارض والسماء ، بين عالم المادة وعالم الروح ، وقامت الدعوات الانسانية الكبرى وخرج انبل الرجال . ومن يدري فقد يأتي الحل الاخير من هذا الشرق مرة اخرى لينقذ انسانية معذبة حائرة .

في رواية جميلة لابن هشام ان نفراً من اصحاب الرسول قالوا : يا رسول الله ، اخبرنا عن نفسك ؟ قال : « نعم ، انا دعوة ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت امي حين حملت بي انه خرج منها نور اضاء لها قصور الشام » .

عسى الا ينطفيء نور النبوة والهدى من ديار الشــام ومن بلاد العرب . *

---

* خطاب ألقي في النادي العربي بدمشق في ١٥ تشرين الثاني ١٩٥٤ بمناسبة المولد النبوي .

الملك ـ العالم والعالم ـ الملك

•

يحتاج المجتمع البشري الى عمال ومحاربين وصناع يصنعون له الاشياء ، والى تجار يتبادلون السلع ويوزعونهـا على الاسواق والبلدان ، والى مهندسين واطباء ومحامين - يجب الا ننسى قط المحامين - وتحتاج الدولة الى قضاة يحكمون بالعدل بين الناس ، والى معلمين يؤدبون ويثقفون الناشئين ، والى ضباط يقودون الجنود وينظمون آلة الحرب ، والى اداريين يشرفون على مصالح الدولة ، والى وزراء ونواب ورؤساء يسوسون الامور بعلم او بغير علم ، كما يريد ابو العـلاء .

اتراني ذكرت كل ما تحتاج اليه الدولة وكل مـا هو ضروري لاكتمال المجتمع ؟

كأني بالمستمعين الكرام يقولون : يبدو لنا انها قائمة كاملة لفئات العاملين في الاجتماع ، ولكن مـا الفائدة من

هذا الحديث المعاد ومن الرجوع الى اوليات يتعلمها اطفالنا في المدرسة الابتدائية رغم الاضراب الذي يكاد يكون يومياً ؟

عفوكم ايها السادة ، ليست هذه قائمة كاملة فقد اهملت عامداً ذكر فئة من حقها ان تذكر اولاً وتأتي قبل كل شيء ..

حضرات المستمعين الكرام ، لا يكتمل المجتمع الانساني الا اذا وجد فيه رجال يكرسون حياتهم للبحث والتأمل والتفكير وينقطعون له انقطاعاً . هؤلاء الرجال هم الفلاسفة والمفكرون ، وهم اهل الرأي واهل النظر اذا شئتم تعبيراً عربياً قديماً .

لا يقوم البنـــاء العظيم على رمال ، وكذلك لا تبنى المدنيات على الاوهام ولا تعيش الدول على الدجل ، وانما تقوم المدنيـــة وتشاد الحضارة وتستقر الدولة على حقائق راسخة يقودنا اليها الفكر السليم . والحياة الاجتماعية تثير قضايا ليس لها اول وليس لها آخر ، ولا ابالغ اذا قلت ان المجتمع هو مجموعة مشاكل . ففي كل يوم شأن جديد ومع كل قانون مسألة وبعد كل اختراع معضلة وفي اثر كل تدبير مشكلة ايضاً . هـــذه المعضلات والمشكلات المزمنة والعابرة والمتجددة ابداً مع تجدد الحياة يجب ان تبحث وتستقصى ، ويجب ان توضع لها الحلول ، وان يجري التفاضل بينها للخير العام .

اني لا اعرف عملاً في الدولة اجل او اهم وابعد اثراً من عمل الفلاسفة والمفكرين . فهم الذين يشخصون امراض الحاضر ويستخلصون العبر من الماضي ويرودون مجاهل المستقبل ، وهم الاشارات الكبيرة على طول الطريق .

والذي الاحظه ان الفكر السوري لم يلعب حتى الآن دوراً بارزاً في حياتنا العامة ولا استطاع ان يحتل مكانه الطبيعي في نظام الاشياء ، وهو مكان الدماغ من الجسم الحي ، ولا عرف له الناس هذا المكان .

فلقد جرت حياتنا الحديثة على عاملين اثنين : اولهما استمرار بعض التراث القديم ، وثانيهما اقتباس عن الآخرين وتقليد لمن سبقنا في ركب الحضارة . ولم تبن الحياة السورية على آراء العلماء وتصميم المفكرين . حتى ان الفكر السوري لم يحاول ان يمد جسراً بين التراث القديم المستمر وبين هذه النظم والعقائد المقتبسة عن الآخرين ، ولا حاول ان يؤلف من هذا الخليط المقتبس كلا واحداً منسجماً . لذلك كان هذا التنافر الصارخ بين عناصر الحياة السورية وكان هذا القلق الخطير .

لا شك ان بعض الكتاب فكروا شيئاً ما في بعض الشؤون وعرضوا لنواح معينة من مشاكل قائمة ومشاكل توقعوها أو تصوروا وجودها . ولكنها على الاجمال محاولات متفرقة متقطعة قصيرة المدى يغلب على اكثرها طابع الترسل والبيان . وما زال النموذج لانتاجنا

الفكري متمثلاً في مقـــال عاجل تحمله الى قرائها صحيفة سيارة .

وعندي ان الخطوة الاولى في الاتجاه الصحيح هي ان نؤمن جميعاً بالعقل مرشداً وهادياً ومنظماً لحياة الناس .

وعلى المفكرين او من يرشحون انفسهم لهـــذا العمل الجليل ان يعلموا ان اكتشاف حقائق الاشياء مرهـــون بالجهد والمثابرة والصبر على البحث المتواصل ، وانهـــم في حاجة الى مشاركة عقلية صادقة والى تعاون فكري صميم بحيث يعمل كل في جهة اختصاصه ويستكملون متعاونين عناصر الموضوع ، ويبني المتأخر منهم على بحوث المتقدمين ، وينشأ تراث فكري متراكم نام لكل ناحية مـــن نواحي الحياة .

مشكلة الحكم ، مثلاً ، لا تعالج معالجة مجديـــة في مقال عابر او حديث مختصر ، وانما تحتاج الى ادمغة كثيرة تنصرف للبحث بضع سنين لتخرج علينا بدراسة جـــدية ورأي حكيم .

ما هو نظام الحكم الذي يلائم طبيعة السوريين ومزاجهم وثقافتهم وظروفهم في منتصف القرن العشرين ؟ الى مـــاذا يشير التاريخ العربي والنظريات القديمة في الاحكام السلطانية وماذا يستفاد من تاريخ سوريا الخاص وتجربتها الفريدة ؟ وما خلاصة تجارب الامم ؟ وما هـــي الاسس النظريـــة لنظم الحكم المختلفة ؟ واذا كانت الديموقراطية هـــي الطريقة

الكريمة لحكم الاحرار فاي اسلوب من اساليب الديموقراطية نقتبس او نكيّف او نبتدع ؟ وكيف نوفق بين سلطان الدولة وبين حرية المواطنين بحيث لا تطغى جهة على اخرى ولا يصير الامر الى فوضى ؟؟؟ هذه وكثير غيرها اسئلة ملحة تستجدي اهل الرأي وتنتظر جهود العلماء وكتب المؤلفين لعشرات السنين .

وينبغي ان يتمتع اهل الرأي بالحرية الكاملة في نشاطهم العقلي وسعيهم النبيل . ولست اقف عند حرية القول وحرية النشر وحرية المعتقد فهي من الامور المسلم بها ومن حقوق الانسان ، وانما اتجاوزها الى معنى ادق – الى حرية الفكر من عبودية الاهداف والاغراض ، والى تحرر المفكرين من قيد الرغبة والرهبة ومجرد النظر الى احتمال النفع والضرر – تلك حرية صورها Goethe حين كتب الى صديق له يقول : « لم اهتم قط ولم اتساءل كيف اكون نافعاً للمجتمع ، واكتفيت بان اعبر عما اراه حقاً وخيراً . كان في ذلك نفع اكيد على اوسع نطاق ، ولكن لم يكن النفع هو الهدف المقصود وانما كان النتيجة المحتومة . »

خليق باهل الفكر الا يتخذوا الفكر وسيلة لاي غرض كان ، والا يخضعوا التفكير لاي اعتبار . وخليق بهم ان يضعوا انفسهم فوق الرغبة وفوق الرهبة وفوق الغنى واكاد اقول فوق المُلك ، لان الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك ، كما كانت تقول العرب . ان

للفكر قداسة وان للعلم كرامة هي خير ما تقدم الحياة للمتازين من الناس .

يقول القاضي الجرجاني :

ولم اقض حق العلم ان كان كلما
بدا طمـع صيرتـه لي سلما
ولو ان اهل العـلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظمـا

لقد تحدثت عن واجب المفكرين وهناك واجب يقع على المواطنين جميعاً اذا ارادوا ان يوجد بينهم مفكرون وان يضيء لهم الفكر سواء السبيل . على المواطنين ان يتقبلوا نصح المفكرين وان يقبلوا على آثارهم ويفسحوا لها مجالاً في مكتباتهم وفي اذهانهم وفي قلوبهم ايضاً .

والى جانب المفكرين والمواطنـين طرف ثالث يملك الوسائل والاسباب لاحياء الفكر حين يقصد الى الاحياء . هذا الطرف الثالث هو الدولة ، وللدولة مؤسساتها وجامعتها ومعاهدها ومنابرها ولها ايضـاً اذاعتها ومجمعها العلمي ، وتستطيع ان تنشيء دوراً خاصة للدراسات ودوائر ابحاث في شتى الوزارات .

ولكن قد تتخذ الدولة موقف المضطهد للفكر المقيد للحريات فيتعطل الرأي ويتحكم الهوى ويتوقف البحث عن الحقائق في البلاد .

وقد تلجأ الدولة الى استغلال العلم وتستخدم بعض الالسنة وبعض الاقلام في الدعوة لمذهبها والترويج لسياستها فيتحول العلماء الى متاجرين بالثقافة والعلوم ويعتل الفكر الصحيح .

وقد تختار الدولة موقف اللامبالاة ، لا تحرم الفكر ولا تستغله وانما تهمله اهمالاً فلا تنتفع به ولا تنفع الناس .

اما اذا كان الحكام انفسهم من اهل النظر ، وكانوا قد تفقهوا قبل ان يسودوا ، فانهم يفسحون المجال طلقاً رحيباً امام رسالة المفكرين ، ويسترشدون بآرائهم وينتفعون باثارهم ويحملون لهم تقدير الدولة الفاضلة لخدامها الكبار — (واذا كان الملك عالماً صار العالم ملكاً .) *

---

* حديث القي من محطة الاذاعة السورية في ٣٠ كانون اول ١٩٥٤ .

اما بعد ..

•

I am building my expectation of a new phase in human affairs upon the belief that there is a profoundly serious minority in the mass of our generally indifferent species . I cannot understand the existence of any of the great religions , I cannot explain any fine and constructive process in history , unless there is such a serious minority amidst our confusions . They are the Salt of the Earth , these people capable of devotion and of living lives for remote aud mighty ends .

H . G Wells
(Democracy under Revision)

اني اكتب هذه السطور في منتصف شهرنا هذا شباط سنة ١٩٥٥ وقدمضى على الحدث الاخير (٢٥ شباط ١٩٥٤) سنة الا بضعة ايام . وكانت هذه السنة فرصة اخرى ساقتها الاقدار لانقاذ الجمهورية السورية والطريقة الديمقراطية في الحكم ... فرصة اخرى ، ولعها آخر فرصة تتاح لهذا الجيل .

كيف كانت هذه التجربة الثانية للحكم الديمقراطي في

سوريا ؟ وما قوة النظام القائم ؟ وما صلاحه للبقاء ؟

هذا النظام قام ، اولاً ، على دستور ١٩٥٠ من حيث الشكل ، وقام ، ثانياً ، على تراث الانقلابات من حيث القوى العاملة فيه . وان مجرد الرجوع الى دستور ١٩٥٠ ، وهو وليد الانقلابين الاولين ، ليحمل في طياته معنى قبول الانقلاب او ادخاله كعنصر فعال الى صميم الحياة السورية . وكثيراً ما تولد الدساتير في ظروف استثنائية ثم يمر الزمن ويحسن التطبيق ويضفي عليها القدم الواناً من القداسة والجلال . الا ان الدستور الذي جاء به انقلاب والغاه انقلاب وعاد به انقلاب في اقل من اربع سنين ، لم يكتسب تلك الحرمة او المناعة أو القداسة التي تحيا بها الدساتير وتبقى .

وحتى لو رجع السوريون الى دستورهم الاول لما استطاعوا ان يتخلصوا كلياً من رواسب الانقلاب . ان الثورات والانقلابات لا تنتهي بالناس من حيث ابتدأت ، وانما تترك آثارها البليغة في العقول وفي النفوس وفي اساليب التفكير والعمل جميعاً . او ليس في نفوس العسكريين شيء من الانقلاب ؟ وبعضهم شارك في اكثر من ضربة حكم واحدة ، وبعضهم عرف سحر النفوذ في الدولة ، وجميعهم رأوا كيف يستطيع ضابط مقدام ان يختصر الطريق الى ارفع المناصب . ثم اليس في نفوس المدنيين اشياء ؟ وفريق منهم مهد للاحداث وافاد منها ، وفريق

عمل في نظام مزدوج وطاب له الازدواج ، واكثرهم اصبح يعترف ، بينه وبين نفسه على الاقل ، بان للجيش شيئاً في هذا الامر وانه لا يمكن التشدد في موضوع الاختصاص بعد الذي كان .. ليس بمستغرب على رجل السياسة المشتغل بالواقع دائماً والممكن ابداً ان يسلم بالواقع القريب المباشر ويعمل ضمن حدود الامكان السهل المتاح .

لهذا كله اقرر ان للجيش « وجوداً » في السياسة السورية ، وان هذا « الوجود » ابتدأ في آذار ١٩٤٩ وهو مستمر الى هذه اللحظة القريبة من آذار ١٩٥٥ – لحظة كتابة هذه الاحرف .

لقد خيل الى بعض الناس اول الامر ان الحدث الخامس انهى الاحداث ، وان الانقلاب الاخير ختم الانقلابات وطوى صفحة من حياة سوريا ليبدأ صفحة جديدة بيضاء . والواقع ان الصفحات لا تطوى في التاريخ بمثل هذه السهولة ، وان الصفحة العذراء الناصعة البياض ليس لها وجود في حياة الامم ، وان اعمالنا تتبعنا الى النهاية ويعيش الماضي في الحاضر ويمتد الى المستقبل في مجار عميقة بعيدة الاغوار .

ثم ان ظروف مولد نظام من الانظمة تقرر سيره ومصيره الى حد بعيد . والحدث الاخير لم يكن انتصاراً حاسماً للحكم المدني على الحكم العسكري . ان الذي حدث في اواخر شباط ١٩٥٤ هو ان فريقاً من الضباط ، يدعمهم

ادبياً اكثر رجال السياسة واهل الرأي ، تمرد على فريق آخر من الضباط الحاكمين ثم دخل الطرفان العسكريان المتنازعان في تسوية ، ودخل العسكريون في تسوية مع المدنيين ، وولد الحكم الحاضر على وهن بنتيجة سلسلة من المفاوضات والمساومات والتسويات .

اما الوزارة الاولى التي حكمت منذ يوم بعد الحدث الاخير ، وهي الوزارة العسلية ، فلم تستطع ان تسيطر على الموقف ولا اسرعت الى اجراء انتخابات ترسي الحكم الجديد على قاعدة سليمة وتضع الامور في نصابها ، وانما استدرجت ببعض عناصرها الى الدخول في مبارزة خفية مع الاركان و « تنازع قوى » كانت الغلبة فيه اخر الامر للجانب الاقوى .

وانسحب من الحكم الحزبان الحاكمان ، حزب الشعب والحزب الوطني ، ومعهما المستقلون . وجاءت الى الحكم وزارة « حيادية » انسجمت مع الاركان انسجاماً بعيداً ، وجاملت العناصر السياسية التي يصور الوهم للناس انها قريبة من الاركان . وجرت انتخابات ايلول ١٩٥٤ في جو من الشك والالتباس والسعي الخفي . وتوزع بعض الضباط الاهتمام بعدد من المناطق الانتخابية ، وابدى آمر الموقع في بعض الدوائر نشاطاً كبيراً . وجاءت النتائج تحمل ترضيات لاكثر الجهات . وذكرتنا تلك المشاهد بالخلق السياسي المرن الذي كان طابع الحياة العامة في المدن الايطالية على عهد (البعث) او الـ Renaissance .

بعد هذا المخاض العسير ولد مجلس نواب جديد ناقص التكوين ، ليس فيه اكثرية مطلقة لحزب من الاحزاب وليس من المستطاع ان ينشأ عنه ائتلاف ثابت لدعم حكم قوي . واعلن المجلس عجزه منذ اللحظة الاولى وتخلى عن وظيفة رئيسية من وظائفه الهامة حين استدعى لقيادة المجلس والبلاد شيخاً كبيراً من الرعيل الاول كان من حقه ان ينام على الغار . والمجلس الذي لم يعتمد على موارده الخاصة في الحكم ، ولم يستطع ان يقدم للبلاد قيادة قوية مسئولة ، اراد لحكومة الخوري الا تحكم والا يكون لها سياسة خارجية ، فانحصرت مهمة الرئيس الخوري في حل خلافات ازلية بين حزبين مجتمعين على مضض في وزارته ، وفي الدعوة الابوية الى تأليف القلوب .. وعاشت الوزارة الخورية على وهن ، عاشت هي الاخرى مئة يوم ، تنظر بعين الى الشارع وتلقي باذن الى الرأي المسلح ، وتشل ارادتها خلافاتها الداخلية وشطط الكتل والاحزاب .

لقد كان استاذنا الكبير Soltau ، رحمه الله ، يستهل محاضراته كل عام عن الجمهورية الفرنسية الثالثة بقوله : « ان العامل الاول المسيطر على حياة فرنسا هو خوفها من المانيا » . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان العامل الاول المسيطر على الديمقراطية السورية هو الخوف من الانقلاب . ولربما بدا لبعض الباحثين ان هناك خوفاً آخر هو الخوف من الشارع ، وهذا صحيح الى حد ما ، لكن هذا الخوف

الآخر من الشارع يعود في التحليل الاخير الى « الفزع الاكبر » . ذلك ان الحكومة الشرعية المتمتعة بثقة الاكثرية في المجلس تستطيع ان تحكم وتفرض الامن والنظام وهيبة الدولة اذا كانت قابضة على زمام القوى المسلحة من شرطة ودرك وجيش . فالحكومة ، اي حكومة ، انما تعتمد في التحليل النهائي على القوة المادية في حماية الدولة . ولا يمكن لحكومة ان تحكم وان تقوم بحق الدولة وحق الناس في الحكم اذا لم تكن واثقة من طاعة القوى المسلحة لها طاعة مطلقة ومتأكدة من ولائها الكامل .

واستمرار جرثومة الانقلاب في الحياة السورية لا يعني ان فكرة الانقلاب سائدة عند الاكثرين من عسكريين ومدنيين . هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان اكثرية الضباط منصرفة عن الانقلاب ، ومقتنعة بان اشتغال الجيش بالسياسة يسيء الى الجيش نفسه في نظامه وانضباطه ومعنوياته . ثم ان الاكثرية الساحقة من الساسة واهل الرأي في البلاد لا ترحب بمحاولة عسكرية جديدة . وعامة الناس عادة لا تبالي . لكن في الجيش فريقاً من الضباط الذين اكلوا من شجرة التفاح المحرمة اول مرة . وهناك فريق من السياسيين ما يزالون يدعمون مراكزهم بصداقات وصلات ودية مع بعض الضباط ، وهم يلوحون بالجيش في كل موقف حاسم لفرض ارادتهم على الدولة . واغلب الظن انهم لا يريدون ان يغامر ضابط آخر ويجازف بانقلاب جديد ، ذلك انهم علموا

بالتجربة المتكررة ان الضابط الصديق الذي يستولي على الدولة لا يقدمها لهم على طبق من فضة وانما ينفرد بالحكم ويستأثر بالسلطان فينشأ بينهم وبينه فتور ، فتباعد ، ثم يكون الخلاف الشديد والعداء السافر ، ويصدق فيهم وفيه قول المتنبي :

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده   تصيده الضرغام فيمن تصيدا

اغلب الظن ان سياسة الانقلابيين من المدنيين تقوم الآن على التلويح بالجيش ، سلاحاً خطيراً مقنعاً ، دون زجه فعلاً في المعترك ؛ ويقنعون منه بحالة مبهمة من الحالات هي « الحياد العطوف » .

هل تستمر هذه اللعبة الخطيرة ؟ وهل وهل ؟ ام قد يأتي يوم ينطلق فيه الضرغام من ذاته ولا يبالي بالمروض والاستاذ ؟ ام يأتي يوم آخر ، اجل واسمى ، يأبى فيه اي مواطن مسلح ان يكون عوناً لمطمح فرد او تطلع حزب ، وهو الذي تعهد ان يكرس حياته لخدمة الدولة كلها والدفاع عن مجموع الوطن ؟

***

وبعد ، ما هو مصير الديمقراطية السورية ؟ والى اين يساق السوريون ؟ وكيف تجد سوريا الامن والقرار تحت وطأة احداثها وبعد سنواتها المضطربات ؟

لا شك ان بعض المواطنين النابهين بدأوا يفكرون

بان النظام الديمقراطي فشل في سوريا وفي بلاد العرب ، ويقولون ان هذه التجربة الثانية للديمقراطية كانت مضيعة للآمال اذ انها جاءت بحكم هزيل لا يخدم اغراض الدولة ولا يصرف الامور بمسئولية تامة وعلى ضوء مصلحة البلاد . وهذا نحو من التفكير خطير ينطوي على التشكيك في مقدرة السوريين على حكم انفسهم ، وبالتالي على استحقاقهم للحياة الحرة .

ولعله من المفيد قبل البحث في طبيعة النظام الديمقراطي وما تتطلبه من الراغبين في حياة كريمة مقبولة ان اؤكد باختصار على معانٍ وردت متفرقة في هذا الكتاب ويجب الا تغيب عن البال :

١ ــ الحكم الديمقراطي الذي يقوم في الاساس على احترام شخصية الفرد ، والذي يترك للانسان ان يحكم نفسه او يختار حكامه او يسمح للآخرين بان يحكموه ، هو النظام الامثل للانسان الراقي والعيش الكريم .

٢ ــ ان تجربة الحكم الديمقراطي في سوريا وفي بلاد العرب كانت متقطعة ، وقصيرة جداً ، بحيث لا نكون منصفين اذا حكمنا عليها بالفشل النهائي .

٣ ــ لم تحدث تجربة النظام الديمقراطي في ظروف سعيدة مؤاتية ، ذلك ان الدولة السورية لا تعيش في مختبر معزول عن العالم تجري فيه التجارب الدستورية ، وانما تعيش في مضطرب واسع من الارض وفي بقعة من العالم حافلة بالزيت وآباره وانابيبه ومصافيه ، وبطرق

مواصلات عالمية وقواعد جوية في الدرجة الاولى من الاهمية والخطر . وهي لذلك موضع اهتمام الدول الكبرى الشديد ، وان هذه الدول لم تكن غريبة عن الاحداث التي حدثت في سوريا والشرق الاوسط كلـــه . وليس يهمها مصير الديمقراطية في قليل او كثير ، وقد ظهر في سياستها اتجاه واضح نحو دعم « الحكام الاقوياء » ، لان التعامـل مع حاكم فرد اسهل عليها بكثير من التفاوض مع حكومة ديمقراطية ومواجهة المجلس والرأي العام .

كما ان الدول العربية الشقيقة لا تترك سوريا وشأنها ، وان جميع عطور فرنسا لا تستطيع ان تزيل رائحة النفط المنتشرة هنا وهناك في جوانب الحياة السورية .

٤ ـ والحكم الديمقـراطي في سوريا مهما كانت هناته واخطاؤه وثغراتـــه ، هل عرفنا حكماً آخر افضل او اكرم او اسلم منه في الربع القرن الاخير ، او في العهد الوطني الخالص بعد الجلاء ؟

ما دام الحكم الديمقراطي هو الحكم اللائق بالانسان الراقي ، وما دمنا لم نعرف نظاماً آخر خيراً منه ، وما دمنا راغبين في حياة حرة كريمة فلنتقـــدم خطوة اخرى باحثين عن اسباب ضعف الديمقراطية فلعل بعض ما نشكو منه ليس من خصائص الديمقراطية ، ولعلنا نجد الطريق الى الهدى او بدء الطريق .

* * *

تفترض الديمقراطية لحسن سيرها وتحقيق أغراضها بعض امور اساسية :

١ - تفترض ، اولاً ، وجود دولة منظمة تخضع لدستور وقوانين ويقوم كل جزء منها بوظيفته المرسومة في الدستور والقوانين . فالديمقراطية لون من الوان الحكم ودستور معين من الدساتير ، وحيث لا يوجد احترام للدستور اصلاً لا يمكن ان يطبق على الوجه الصحيح دستور ديمقراطي او غير ديمقراطي . وان دولة تخشى في كل لحظة ان ترحف اليها دبابات على ضوء النجوم وتستولي على مفاتيح الحكم لا يستقيم فيها حكم ولا يعيش دستور . فالقضية الاولى في حياة سوريا ، قضية الساعة ، قضية السنوات الست الاخيرات ، تتلخص في تحقيق العدالة في الدولة ، والعدالة في هذا الصدد تعني مراعاة الاختصاص كما بيّن سقراط في جمهورية افلاطون : « واذا تقيد كل منهم بعمله الخاص المنوط به ، معرضاً عما لا يعنيه ، **في دوائر الصناعة والحرب والحكم** ، فذلك التصرف عدالة وبه تكون المدينة عادلة » .

وواضح ان هذا الخطر الذي يتهدد النظام الديمقراطي في سوريا ليس ناتجاً عن الديمقراطية ذاتها ، وان الذين يدعون الى حكم قوي لاستبعاد هذا الخطر يلجأون بدون

تبصر الى طريقة ابي نواس : ودواني بالتي كانت هي الداء .

٢ - وتفترض الديمقراطية ، ثانياً ، وجود مجتمع منسجم متماسك ، له غايات مشتركة يبغي تحقيقها بالاشتراك ، وله قيم يحرص عليها ، وطريقة في الحياة تستحق بنظره الحفاظ . وقاعدة الحكم الديمقراطي هي العمل بواسطة الاكثرية ، والمقدرة على العمل بواسطة الاكثرية تستدعي توفر شرطين :

أ - مشاركة في المجتمع السياسي ناتجة عن اجماع المشتركين ، اي اشتراك المواطنين جميعاً .

ب - اتفاق اجماعي على ان عمل الاكثرية يجب ان يكون محترماً ومقبولاً عند الجميع بلا استثناء .

لكن في سوريا افراداً وجماعات يضعون انفسهم ، بالوعي او باللاوعي ، خارج المجتمع السوري او فوق المجتمع ، ولا يرون في هذا المجتمع ما يستحق الحفاظ ، ويربط بعضهم بمؤسسات ومنظمات خارج الدولة السورية وخارج نطاق الامة العربية ولاء اقوى بكثير من ولائهم للدولة السورية أو لامة العرب . وبعضهم لا يرى للدولة حقاً عليه ولا يعترف للامة العربية باي ولاء لها في عنقه . وفي سوريا احزاب لا تؤمن بالحرية ولا تسلم بالقواعد الديمقراطية ، وبرلمانيون لا يراعون قوانين اللعبة البرلمانية ولا يعترفون بالمجلس مرجعاً اخيراً في الفترة الواقعة بين انتخاب وانتخاب .

٣ - وتفترض الديمقراطية ، ثالثاً ، وجود نخبة ممتازة وفئة مختارة تخرج من بين المواطنين جميعاً لتقود المواطنين : فئة تستهويها الخدمة العامة ، وتتميز بالوطنية العالية والمسئولية التامة والقدرة على سياسة الناس وتدبير الامور . فالحكم الديمقراطي ليس حكم الشارع او حكم الغوغاء ، وانما هو في البلاد الديمقراطية العريقة ، حكم الاخيار وحكم الافضل المعبأ من جميع طبقات الشعب ، المنتقى من كل صعيد .

والاسلوب الديمقراطي هو الاسلوب الطبيعي العادل الذي يتيح الفرص المتكافئة لجميع المواطنين ويترك لتفاعل القوى الطبيعية ان تقدم المواهب والفضائل والعزمات الى الصف الاول . والزعامة التي تظهر بنتيجة « العملية الديمقراطية » هي زعامة طبيعية بدون جدال ، لانها تتخذ طريقها الى القمة معتمدة على امتيازها الحقيقي وعلى اعتراف الناس بذلك الامتياز وقبولهم له عن قناعة ورضا .

ليس الحكم الديمقراطي ، اذن ، مرادفاً للحكم المائع او الحكم الطائش او الحكم الجبان . ولم تكن الديمقراطية البريطانية ضعيفة بين يدي تشرشل في سنوات الحرب الاخيرة ، ولا كانت الديمقراطية الاميركية واهنة تحت امرة روزفلت ، ومن يستطيع ان يدعي بان الديمقراطية الفرنسية كانت عاجزة او مائعة يوم قادها الى النصر كليمانصو ! ... وكما ان الدكتاتورية تكون قوية او ضعيفة بالنسبة لشخصية الدكتاتور

كذلك تكون الديمقراطية قوية او ضعيفة بالنسبة الى شخصية الحكام الديمقراطيين من وزراء ونواب . فالعجز والجبن والخوف والتردد والخفة والطيش ليست من الصفات الملازمة لاي نظام من انظمة الحكم ، وانما هي من صفات بعض النفوس .

٤ – والديمقراطية المستقرة الناضجة تعتمد على حزبين رئيسيين في الدولة ، يأتي احدهما الى المجلس باكثرية تستطيع ان تدعم حكومة مسئولة ثابتة لعدد من السنين ، ما دام المجلس قائماً وممثلاً لرأي البلاد . وانه من الخير للديمقراطية السورية الناشئة الا توجد في المجلس كتل متعددة تتجمع حول اشخاص وحول مصالح او حول ترشيحات معينة ، وتغير معسكرها مع كل ازمة وفي اثر كل وزارة ، كما هو الحال في البرلمان الفرنسي وفي نظيره المجلس السوري .

٥ – ولحسن سير الديمقراطية لا بد من اعطاء الحق للسلطة التنفيذية في حل المجلس والاحتكام الى البلاد اذا لم يستطع المجلس ان يقدم للبلاد قيادة مسئولة ، واذا لم تسفر الانتخابات عن اكثرية ظاهرة لحزب او اتجاه ، او اذا هدم المجلس نفسه ادبياً ومعنوياً بتصرفاته وسلوك بعض اعضائه ولم يعد لائقاً لتمثيل البلاد ، او اذا تغير الرأي العام في شأن هام من الشئون او قضية رئيسية من القضايا . في جميع هذه الحالات تقضي الديمقراطية ان يحل

المجلس وان نجري انتخابات تستقيم بنتيجتها الاوضاع .

وقد ارتكب واضعو الدستور الحالي خطأ كبيراً في حق الديمقراطية حين قرروا في الفقرة الثانية والفقرة الثالثة من المادة الرابعة والتسعين :

« لا يجوز ان يحل مجلس النواب قبل مضي ثمانية عشر شهراً من انتخابه » .

« في حالة حل المجلس تستقيل الوزارة ويعين رئيس الجمهورية حكومة غيرها تشرف على الانتخابات » .

هذه المادة البلهاء تجعل السلطة التنفيذية تحت رحمة المجلس وتلغي التوازن بين السلطتين ، ففي يد المجلس سلاح خطير الا وهو نزع الثقة واسقاط الحكومة متى شاء ، وليس في يد الوزارة سلاح مقابل اذا تصرف المجلس تصرفاً طائشاً غير مسئول . والوزارة التي تعلم ان حياتها تنتهي مع حل المجلس قد لا تقدم على حله رغم وجود مصلحة للبلاد في ذلك . وفي هذا عرقلة لانتظام الشورى والرجوع الى الامة عند الحاجة .

ثم لنفرض ان مجلساً لم يستطع ان يعطي البلاد حكماً مستقراً مسئولاً ، فهل تعيش البلاد ثمانية عشر شهراً بدون حكومة مسئولة وبدون قرار ؟ وهل تنتظرنا الظروف والاحداث والمشاكل سنة ونصف السنة ؟ وهل يتوقف عن سيره التاريخ من اجلنا ؟ الا يرى بعض فقهائنا الدستوريين ان مادتهم هذه دعوة الى سلوك طريق غير دستورية لحل الازمات ، وقد سلكت غير مرة في تاريخ

سوريا الحديث تلك الطرق ..

٦ – والديمقراطية فلسفة ونظريات وافكار ومبادىء من جهة ، وهي من جهة اخرى انظمة ومؤسسات واساليب وطرق عمل واجراءات ، ونحن عندما اقتبسنا الديمقراطية اقتبسناها شكلاً من الاشكال ونظاماً من الانظمة كما اقتبسنا جهاز الراديو وآلة السيارة وكما نقتبس الازياء التي تطلع بها علينا باريس كل عام بل كل فصل . اما اسسها الفكرية والروحية فلم تجد سبيلها الى عقول الناس وقلوبهم على نطاق واسع ، ولا رسخت في العقول والقلوب التي بلغتها . ومما يلفت النظر أنه **ليس في ميدان السياسة السورية اليوم من يمثل النظرية الديمقراطية بعمق وشمول وقوة تعبير ، كما يمثل النظرية الماركسية مثلاً بعض اصحابها .**

***

ولست اريد ان اعيد او الخص ما تقدم في هذا الكتاب ، ولم يعد يجدي ان نقول للآخرين ما يجب ان نعمل نحن . وانه لمن اضاعة الوقت ان نقضي الوقت في نقد الرعيل الاول ولوم الرعيل الثاني ونطلب الى رجال من الرعيلين ما لا قبل لهم به وما نعجز نحن عن تحقيقه . اننا لا نستطيع ان نغير طبائع الناس وخصائص الاجيال ، وكل جيل مدعو الى ان يقدم ما عنده ويلعب دوره ويمضي ، وتبقى البلاد في حاجة دائمة الى خدمات ابنائها –

جميع ابنائها ، جيلاً بعد جيل .

وهناك ظاهرة خطيرة في حياة سوريا الحاضرة الا وهي لامبالاة عامة الشعب واستعدادهم لتقبل اي حكم واي حاكم ، واعراض طبقة ممتازة من الناس عن العمل العام وحرمان هذا الشعب الطيب من قيادة خير ابنائه . ان أثقف شباب سوريا واصلح المواطنين ، وارقاهم انسانياً ، واصفاهم عربياً ، واسماهم وطنياً وبكل ميزان ، يصطنعون « القرف » من السياسة ويبتعدون عن ميدان لفه الغبار وعلقت به النار وكثرت فيه الضحايا . ويقود الاجيال الصاعدة رجال غوغائيون يقفون عند اشباه الحقائق ويشتغلون بانصاف الحلول ، وينقلون آداب السوقة الى مجلس النواب ، ويحتلون الساحة بالجرأة والحيوية والتنظيم .

اني لاتساءل : هل يستطيع رجال الثقافة العالية من الشباب ان يقفوا بعيداً ، ضناً بانفسهم وبخلاً ، بينما تحدث الاحداث الكبار في البلاد وتتبدل القيم وتتغير المقاييس ويحاول اوساط من الرجال واشباه الرسل ان يغيروا اسس الحياة ويرسموا خطوط المستقبل ؟

الحرية لا تبقى اذا لم يبذل كل مواطن لها جهداً كريماً ، والحكم الديمقراطي يتطلب ان يتقدم الى القيادة خيار المواطنين . والعمل العام ليس ترفاً او لهواً او تبرعاً او فضولاً او طموحاً ، وانما هو واجب على الاكفاء وتضحية وجد من الامر وعطاء . واذا كان هؤلاء الشباب المثقفون

يؤمنون بالحرية وبكرامة الانسان وبالقيم الروحية الخالدة ، وهم بلا شك مؤمنون بهذا كله بحكم انوارهم ، فيجب ان يتقدموا لانقاذ هذه القيم جميعاً ويجاهدوا في سبيلها الجهاد الحسن كما يفعل الاحرار المستنيرون في كل زمان ومكان .

اني اعلق الامل الاخير في انقاذ الديمقراطية السورية على اجتماع تلك النخبة من شباب سوريا وعلى انتظامهم في مؤسسة يولد معها المجتمع الجديد وتتضح معالم المستقبل .

تستطيع تلك النخبة حين تنزل مؤمنة مجتمعة منظمة الى الميدان ان تؤدي رسالة الحرية وتعزز الايمان بالانسان وتوضح الفكرة الديمقراطية ، وتنهج في العدل الاجتماعي نهجاً « ديمقراطياً اجتماعياً » يضمن كل ما في الاشتراكية من خير دون حقد وعنف وسحق للحريات .

وتستطيع تلك النخبة العاملة ان تدرس بروح علمية خالصة كل مشكلة من مشاكل البلاد على ضوء العقل والعلم والتجارب ، وتضع الحل الملائم للصالح العام لا الحل الخاضع لمذهب او شعار .

وتستطيع تلك النخبة ايضاً ان تعبىء الرأي العام وتنظمه وتنيره وتسير به في مجاري الحق والخير ، وتكون مؤسساتها مدارس لتربية المواطنين وتهيئة الحكام ، ومناخاً وطنياً عالياً تنشأ فيه الزعامة الروحية والقيادة الملهمة .

واذا كانت دعوات شعوبية ورسالات منحرفة قد الفت قوة مجتمعة واجتذبت اليها انصاف المتعلمين وحشدت لتأييدها

الناس ، فواجب الدعوات الفاضلة ان تسلح نفسها بالجمع والتنظيم ، هذا اذا اردنا ان يسود الحق والخير لا ان يعلنا فحسب .

اني لاتطلع بعين التوقع والرجاء ، تطلعَ H . G . Wells ، الى تلك النخبة الخيرة والطليعة الرائدة لابتداء مرحلة جديدة في حياة البلاد .. ولا يمكن ان نفسر اي عمل انشائي نبيل في التاريخ بدون اقلية جدية تقيم في قلب الفوضى نظاماً .. انهم **ملح الارض** اولئك القادرون على ان يخلصوا ويفتدوا ، ويكرسوا حياتهم لغايات بعيدة ، عظيمة ..

